سلسلة أوراق من التاريخ

٣

من ذكريات الغزو الفرنجي

وُجُوهٌ مِن العَهدِ الصَّليبيّ

شاكر مصطفى

من ذكريات الغزو الفرنجي شاكر مصطفى



ريع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ــبرقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ــ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

من ذكريات الغزو الفرنجي

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ



من ذكريات الغزو الفرنجي

وجوه من العهد الصليبي



كلمة أولى

هذه الأحاديث عن الفرنجة الصليبيين، لها في الجو السياسي العالمي العام، مناسبتها ومعناها. فالحروب الصليبية للعرب والإسلام، من أقصى غرب البحر المتوسط في الأندلس والشمال الأفريقي إلى صقلية إلى الشام كانت من أكثر الحروب عبثية وفراغاً من المعنى. نسيج تلك الأيام التي استمرت في ما بين المشرق والمغرب ما يزيد على مائتين وعشرين ألف يوم نسيج عجيب. إنها نسجت سنابك وسيوفاً ودماء وأحقاداً ومؤامرات وبطولات وأشلاء وأعلاماً ممزقة وحصوناً للخراب. من ذا الذي يحصيها ومن ذا الذي يحيط؟

المعنى الوحيد الذي برز فيها هو الجشع التجاري وسبق السيطرة. فعلى الرغم من أن تلك الحروب قادتها أوروبا كلها بوحشيتها البدائية وتخلفها لديار الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها. وعلى الرغم من أن الدعاة لها كانوا من المجموعات الدينية المتعصبة ابتداء من البابا في روما وانتهاء بصغار القسس في أصغر القرى. وعلى الرغم من الصلبان التي رفعت في مقدمة الحملات أو صورت على الملابس ودقت لها الأجراس في الكنائس ونثرت لها في الناس صكوك الغفران فقد كانت أبعد الأمور عن السيد المسيح وأقلها علاقة بالدين والحضارة. كانت حروب مصالح اقتصادية وذهب وتوابل وفلفل وقرصنة وسيطرة. هذه هي الخلاصة!

أم أنتم في شك مما أرى؟ لسوف نرى.

هذه الحروب العبثية

الحروب التي نسميها بالحروب الصليبية والتي استمرت كالجرح الناغر في خاصرة المشرق الإسلامي والمغرب والتي طالت ما بين إسبانيا والشام والشمال الأفريقي قرابة ستة من القرون (من أواسط القرن ١١م حتى ما بعد القرن ١٦م بنصف قرن) هذه الحروب لم تحمل هذا الاسم إلا منذ مائتين ونيف من السنين. لا المسلمون ولا أصحابها الأقدمون أنفسهم عرفوها باسم الصليبيات. الغربيون أعطوها هذا الاسم الديني المتعصب. كانت تدعى فقط في التواريخ الإسلامية بحروب الفرنجة. ويبدو أن الطرفين لم يخدعوا بالصليب الذي مشى أمام المحاربين الغرباء وارتسم على صدورهم. ولا بالدعوى التي ادعوها بالسبب الديني فيها. «تخليص قبر السيد المسيح من الكفار المسلمين» كان الستار الذي أخفوا وراءه أطماعهم الدنيوية الجشعة ومشوا كالقطعان وراءها.

كانت هذه الحروب أولاً وأخيراً حروب مصالح اقتصادية. الأوروبيون ولا سيما المطلون منهم على البحر المتوسط أرادوا منها احتلال المدن الإسلامية الغربية التي يصب فيها الذهب الأفريقي. والمدن المشرقية التي تصب فيها تجارة التوابل والعاج والفلفل والحرير على خط التجارة العالمي من الشرق البعيد والشرق الأقصى. كانت هذه التجارات في أيدي المسلمين في حين كانت الأساطيل الأوروبية تنقلها إلى أوروبا. وقويت هذه الأساطيل لدرجة السيطرة على وجه البحر المتوسط كله والطمع في أرض المشرق وتجارته وفي الأندلس والمغرب.

والتقى توق البابا لإظهار سيطرته على الملوك مع رغبة تجار السفن

والأشرعة في مد الأيدي إلى التوابل عند هدف «القبر المقدس» وتراكضت الجموع حفاة وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. انصبوا بمئات الألوف على الطرقات إلى المشرق والمغرب. جاءوا. نهبوا. قتلوا. وذُبحوا بدورهم أيضاً والزعماء والتجار في سرائرهم يضحكون!

وعلى الرغم من أن الدلائل على المصالح توافرت منذ الأيام الأولى وفيما بعدها، لكن من ذا الذي يعي والعيون معلقة بالقبر المقدس؟

الزعيم بوهيمند الذي نجح في الحملة الأولى بالحيلة والرشوة باحتلال أنطاكية في شمال الشام رفض المسير إلى القبر المقدس مع أن ذلك كان شعار جماعته. والذين وصلوا في الحملة ذاتها إلى سهل يافا على رمية حجر من القدس قعد قادتهم يتشاورون هل يفتحون القدس أم يذهبون لفتح مصر ممر التجارة العالمية؟ والذين احتلوا مدن الساحل الشامي اشترط بعضهم على بعض تقاسم الامتيازات والغنائم مناطق حرة فيها ــ والذين أتوا لاستخلاص القدس من صلاح الدين اكتفوا بأخذ قسم من الساحل يتاجرون فيه. والذين قادوا الحملة الرابعة انتهوا بها إلى القسطنطينية وتركوا القبر المقدس للمسلمين. والذين تبرعوا لنقل حملة الأطفال من أوروبا انتهوا بهم للبيع في أسواق النخاسة. والحملتان الخامسة والسابعة نزلتا في دمياط بمصر، وانهزمتا هناك لا في فلسطين. والحملة الثامنة قادها «القديس» لويس إلى تونس. كأنما هرب القبر المقدس بمن هو فيه إلى المغرب!...

وقد كانت حروب الفرنجة لنا حروباً شرسة شاملة. شاملة لأوروبا كلها ضد البلاد الإسلامية كلها. اشتركت فيها حتى السويد والدانمرك والسلاف والألمان بالإضافة إلى الفرنسيين والإنكليز والإيطاليين والبرتغال وفي الطليعة كان الإسبان. ليس من أمة منهم لم تسهم فيها بحجر! عصا التحريض البابوي كانت تسوق كل الجموع ضد الأندلس والمغرب ومصر والشام على السواء وتحرض المغول من وراء بلاد الإسلام والأحباش.

وكانت هذه الحروب شاملة بمعاني أخرى. كانت في البر والبحر على السواء. وكانت في كل مكان فيه مسلم. كما كانت حروباً اقتصادية عسكرية سياسية وبكل الأسلحة الموجودة والتي يبتكرها المبتكرون حتى في المقاطعة التجارية...

وكانت حروب الفرنجة إلى هذا وذاك هجرة بشرية في أول أمرها كالسيول. ثم تحولت حرب جنود لجنود بعد أن تبنتها الدول والملوك. في الحملات الأولى بخاصة اختلط الشيوخ مع القسس والمركبات والخيل والحمير والنساء. كما اشترك الباعة والفرسان والبياطرة والإسكافيون والمغامرون والمفلسون والشحاذون. معظم القاع الاجتماعي الأوروبي زحف ليموت بعضه على الطرق مرضاً وجوعاً وقتلاً وليصل طويل العمر إلى المشرق مبهوتاً.

كان الطمع بثروات الشرق الأسطورية ترقص أمامهم كالبهلوان الشيطان كلما اقتربوا منه ابتعد... ثم انتظمت الحروب جنوداً مجندين وتقاة متطوعين وفرساناً يبحثون عن مغامرة بعد أن تبينت أوروبا أن المشرق الإسلامي مقبرة واسعة للغزاة وأن ثرواته أسطورة غبية يحلم بها وحدهم البلهاء! وبعد أن كان قسيس مهلهل الثياب أشعث الشعر كبطرس الراهب يمشي في مقدمة الجموع صار الملوك والأمراء هم الذين يسيرون بها بكل أبهة الملوك... وبمؤامراتهم بعضهم ضد بعض أيضاً!

وكانت تحركات الجموع والجنود القادمة من أوروبا تجري على غير موعد أو نظام ولكن دون انقطاع. ولهذا كان حصرها في حملات ثمان، على الطريقة التقليدية، من الأخطاء التي أدخلت على تلك الحروب. جعلوها عمليات منظمة محددة. والواقع أنها كانت تزيد في التعداد على مائة حملة عدداً في المشرق وأكثر منها في الأندلس والمغرب. جموعاً بعد جموع كانت تتجمع ثم تصل مختلفة الأجناس والأعداد. تخرج من مواقع شتى في أوروبا لتنزل حيث يوجهها الزعماء في المشرق أو المغرب وحيث تجد هدفاً أخيراً لحياتها.. استمر نزولها إلى

المشرق فقط مائتي سنة رسمياً على الأقل دون الموجات اللاحقة !

ويزعمون أيضاً حين يحكون حكاية هذه الحروب أنها انطلقت لسبب ديني دام قرنين . وإذا أهملنا المغالطة في المدة وفي تجزئة الحروب وهي واحدة فمن ذا الذي يستطيع الزعم بأن حدثاً معيناً في التاريخ يظل يحتفظ بأسبابه نفسها مائتي سنة؟ لقد كانت لها في مطلعها أسباب دينية اقتصادية . ثم صارت حروب احتلال وتجارة وسياسة بعشرات الأسباب . واستغلها في كل فترة شعب أو أكثر من الشعوب الأوروبية لأسباب تخصه . السببان الوحيدان اللذان تكررا في جميع الحملات الصغرى والكبرى هما : المصالح التي يحرص عليها الكبار والجهل الأعمى من جانب الصغار . كالرعاة والقطعان . للرعاة أهدافهم من المرعى وللخراف أهداف أخرى .

وأخيراً يحسب الناس أن صلاح الدين أنهى الحروب الصليبية حين حرر القدس سنة ١١٨٧م مع أنها بقيت بعده مشتعلة الأوار مائة سنة ونيف . على الساحل الشامي نفسة إلى أن اقتلعت جذورها من عكا سنة ١٢٩١م . قبل ٧٠٤ سنوات ! دعك مما كان منها في الأندلس وامتد قرنين آخرين ومما كان في المغرب ودام مثل ذلك ... ومع هذا كله فهل انتهت حقاً هذه الحروب العبثية التي مرت عليها الآن ثمانية قرون ؟

ضلال أن نظن ذلك . فمن شدا شيئاً في التاريخ ونظر في مجراه منذ تلك الأيام إلى اليوم يدرك أن الصليبيات ما تزال مستمرة . الحقد الأوروبي الأسود يغذيها وما يزال . وإن كانت تلبس في كل حالة لبوساً مختلفاً . إنها مستمرة إلى اليوم ومن كان في شك من ذلك فليحلل الاستعمار ثم الإمبريالية ثم هذا الإذلال المبرمج الذي نعيشه .

ألم تصبح كلمة صليبيات تطلق على كل حرب يقودها الحقد الأعمى في أنحاء الدنيا ؟

أم على قلوب أقفالها ؟.

أتسز

أتسز اسم مغمور . هو كلمتان بالتركية تعنيان من لا أب له أو من لا اسم له . وكان من عادة النساء التركيات إذا مات لإحداهن عدة أطفال أن تطلق هذا الاسم على بعض أبنائها ليتوه عنه الموت فلا يختطفه ... ويبدو أن أتسز الذي نتحدث عنه اليوم كان من هذا القبيل .تَخَطَفَ الموتأشقاءه فعوذته أمه بهذا الاسم . ونجا ليكون له دوره في تاريخ الشام قبيل الحروب الصليبية . إنه نموذج معبر عما كان من أمر الشام وأهله ونكباته قبل وصول الغزاة الفرنجة .

كان أتسز بن أوق يعرف بالخوارزمي لأن أصله من هناك ، من ضفاف بحيرة أرال على مشارف السهوب التركية .. انجرف مع ما جرفته الحركة السلجوقية المهاجرة من موطنه الأصلي نحو الجنوب الغربي ، أي نحو بلاد إيران ثم أذربيجان وأرمينية . لم يكن وحده بالطبع فقد كان يتزعم جماعة عرفت بالناوكية . وأغرته بلاد الأناضول فراح فيها . مغامراً جباراً مرحاً . لم يكن يتبع السلاجقة ولا يأتمر بأمرهم ولكن يسير في ظلهم ، ومع الرعب الذي كانوا يبثونه في الدروب ... ويبدو أنه وجد الكثير من العصابات أمثاله تنهب وتحرق وتدمر وتقتل فراح يبحث عن ميدان آخر . ولما كان الفاطميون في جنوب الشام من الكفرة في نظره هو السني المتعصب إذن فلينصرف بأصحابه إلى جنوب الشام ... وهكذا كان ...

نزل كالسهم بعصابته الكثيفة مسرعاً حتى الرملة سنة ٤٦٣/١٠٧٠هـ وكانت البلاد خالية حرقها التخريب . أما الرملة فكانت

من كبريات مدن الشام. فاحتلها بسهولة وعكف على بيت المقدس فأخذه ولم يقارب الساحل ومدن الساحل لقوة البحرية الفاطمية ولكنه عاد إلى دمشق فضيق عليها وواصل الغارات على غوطتها وقطع الميرة عنها ورعى زرعها كلما أحصد في الربيع. فصمدت له عدة سنين. حتى اضطرب أمرها وخربت المنازل بها وزاد غلاء الأسعار لعدم تواصل الأقوات وجلا أكثر أهلها عنها. واستحكم الخلاف والخصومات بين حكامها ...

وفي سنة ٤٦٨هـ اهتزت المجاعة في دمشق تتخطف الناس كالأغوال. عدمت الأقوات. ونفدت الغلات وعجز الناس عن غلاء الأسعار الفاحش فكان بعضهم ينظر إلى بعض كفرائس للطعام. ولم يكن موتى الطرقات يصلون المقابر لأنهم يؤكلون قبلها ويستدعى الطبيب لعيادة مريض إلى البيت فتتولاه السكين والأسنان الحديدية... وترمى الكلاليب في المنعطفات لصيد تعيس الحظ من المارة. أما الكلاب والقطط والفئران فقد عدمت من البلد ...

وكان أتسز ينتظر كل ذلك فاضطرت المدينة إلى الاستسلام بالأمان فلما نزلها أتسز نزلت بها قوارع البلاء مرة أخرى. نزل الدور وأخرج أهلها منها واغتصب أملاكها في الغوطة وبالغ في سوء النية حتى تواصلت عليه الدعوات في جميع الأوقات وأعقاب الصلوات... لعل الله يهلكه ويعفي آثاره ...

مكث أتسز في دمشق عدة أشهر بنى قلعة دمشق ولم يكن فيها قلعة ثم أخذ يجمع الجند ويعد نفسه لمشروع ضخم في رأسه. كان يحلم بغزو مصر والإطاحة بالخلافة الفاطمية وحده. وكانت مصر مطمعاً فقد خرجت منذ عهد قريب جداً من سنوات المجاعة والفوضى فبرز أتسز في دمشق في جمع عظيم بلغ ٢٠ ألفاً إلى ناحية الساحل ثم منها إلى مصر طامعاً في ملكها «والدعاء عليه من أهل دمشق متواصل واللعن له متتابع متصل ...» ولقيه على الدلتا المصرية بدر الجمالي وزير الفاطميين لجمع من جمعه من الجند والبدو ... وأقام أتسز نيفاً وخمسين يوماً يجمع الأموال ويسبي الحريم ويذبح

الأطفال وهو يراسل بدراً الجمالي ويطلب المال منه ليعود . ولم يكن ذلك إلا حجة للمناورة فقد كانت مصر بغيته ولذلك ساق بجيشه نحو القاهرة التي كانت يوم ذاك بحراً من الفوضى

جند من جميع الأجناس يتراكضون والرجال يقرؤون القرآن والنساء حاسرات الرؤوس أمام القصر الفاطمي يتضرعن وكان معظم من فيها يستعدون للهرب في حين كانت جحافل أتسز والدبادب والبوقات تضرب بقوة ... وحسب الناس أن القاهرة سقطت لا محالة لكن خيانة من جموع الأعراب والغلمان وقعت ضد أتسز فانقلب الموقف كله رأساً على عقب ... فإذا بأتسز طريد على الرمال وجنده مستباح للسيوف والنشاب وكل عدته للحرب نهب للناهبين . والنار تضرب في خيامه والقتل يأخذ في أصحابه ذات اليمين وذات الشمال .

وهرب أتسز من مصر تاركاً للناهبين ثلاثة آلاف حصان وعشرة آلاف صبي وجارية وأما من الأموال والثياب فما لا يحصى وأقام الناس شهراً يجمعون الغنائم ويكدسونها أمام قصر الخلافة !

ووصل أتسز في نفر يسير إلى غزة فثار عليه أهلها وقتلوا بعضاً من جماعته فهرب إلى الرملة فخرج إليه أهلها وقاتلوه . فوصل دمشق في بضعة عشر نفساً . فضربوا له خيمته في ظاهر المدينة وجاءه وفد يقول : أيها الملك إنك تعرف أنه لم يبق في هذا البلد إلا عشر العشر من الجوع والفاقة والضعف ولم يبق لنا قوة . فإن كنت مقيماً بيننا فنحن بين يديك وإن بعدت عنا فلا طاقة لنا بقتال أحد ...

وعاد أتسز في دمشق يجمع الجند من التركمان ويأتي بهم من كل مكان لا سيما بعد أن سمع أن حامية القدس قد نقضوا عهده وقلبوا ولاءهم إلى الخلافة الفاطمية ثم أسمع أن أمواله وأهله الذين تركهم في القدس قد وثب عليهم القضاة والناس . فانقض على القدس يقاتلها . قتل ثلاثة آلاف واحتمى قوم بالصخرة فقرر عليهم الأموال . بحيث بيعت الفضة كل خمسين درهماً بدينار

وكان بثلاثة عشر فقط ... وسار إلى الرملة فلم يجد فيها أحداً فجاء غزة فلم يدع فيها عيناً تطرف وحاصر العريش فأماتها ثم حاصر يافا وهدم سورها ...

حين عاد إلى دمشق لم يكن فيها من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف . وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فبقي اثنان . والدار التي تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا تجد مشترياً ... ونُسلت أخشاب البيوت حطباً ...

كل هذا الخراب كان له أثره في توطد الصليبيين حين غزوا المنطقة بعد سنوات ...

أما أتسز فكيف كانت نهايته ؟ خاف أن يهجم الفاطميون عليه فأعلن الولاء للعباسيين وللسلاجقة واستنجد بهم . فأنجدوه . بعثوا إليه شقيق السلطان واسمه تتش فاستقبله أتسز على باب البلد ولكنه في الليل خنقه بوتر قوسه في قلعته التي بنى ! ..

وانتهى المغامر في غمضة عين ! داس عليه التاريخ !.

مـلازكـرد

في شرقي الأناضول بين الجبال التي لا تمل الثلوج زيارتها كل سنة ولا تمل منحها حلة جليلة من البياض والفضة ثم بحيرة كبيرة يقع على ضفافها عدد من البلدان ولكنها تعرف باسم بحيرة وان وبحيرة ملازكرت. هذه البحيرة القصية الساكنة سكون الأبد دخلت التاريخ مرة واحدة فقط ثم خرجت منه مسرعة لتعتزل اعتزال الأبد. هل يذكرها اليوم أحد؟ ومع ذلك فقد شهدت معركة ما شهد أي موقع في التاريخ مثلها. وسجلت اسمها في هذه المعركة. ومع ما كان لها من الضجة يومها والأصداء مما لم يكن إلا للمعارك الفاصلة في التاريخ إلا أنه لم يمض قليل حتى نسي الناس عنها كل شيء... بل اختلفوا حتى في تهجية اسمها: ملازكرد. مانزكرت. منزيكرد....

المؤرخون الغربيون يعتبرون هذه المعركة التي جرت قبل الصليبيات بخمس وعشرين سنة أحد أسباب الحروب الصليبية. فما قصتها؟

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر أفلت زمام السلاجقة في آسيا الصغرى. هجموا عليها من شرق أرمينيا حتى غرب الأناضول كانت العربات السلجوقية تحمل المنهوبات وتعود بها إلى أذربيجان المقر الذي اتخذته لأسرها تاركة وراءها الكنائس مهدمة والمزارع قفراً والبيوت محروقة وآثار السنابك في وجوه القتلى... لم يكن لهم هدف سوى النهب حتى خلت معظم المناطق من البشر... كانوا يعتبرون ذلك جهاداً. أوليس معظم السكان هناك من الروم والأرمن والسريان؟.

وتحرك إمبراطور الروم رومانوس الرابع سنة ١٠٧٠ لدفع هذا البلاء الذي غزا بلاده كالجراد المنتشر. فأعاد تنظيم الجيش وضم إليه من المرتزقة جموعاً من النورماند والإيطاليين والتركمان الآسيويين والفرنجة الغربيين ومشى به في أعداد لا تحصى جهة الشرق إلى مرعش ومنبج على حدود الروم مع بلاد الشام.. في السنة التالية اتجه شرقاً ليحمي أرمينية التى أهلكتها الغارات وأتت على الزرع والضرع فيها...

في الوقت نفسه سنة ١٠٧٠ كان سلطان السلاجقة ألب أرسلان قد وقر في نفسه مشروع فتح الشام كله وأخذه من الخلافة الفاطمية ومطاردتها حتى مصر. واكتسح في طريقه عدة مدن مثل ملازكرد وملاطية حتى وصل حلب وضرب عليها الحصار. كانت أول المدن الفاطمية أمامه! وطال حصارها حتى جاء الشتاء فطلب منه الجند «دستوراً» أي إذناً ليعودوا إلى أهاليهم فسمح لهم على أمل العودة في مطلع الربيع لمتابعة المشروع البعيد: اكتساح مصر!

لم يكن السلطان قد سار في بعض الطريق عائداً إلى الري، (قرب طهران اليوم) وهي عاصمته، حتى سمع بأن إمبراطور الروم رومانوس قد سار بالعسكر اللجب والعدة والعدد في اتجاه أرمينية. وارتبك السلطان أي ارتباك ذلك أن العدد الأضخم من رجاله قد سرح إلى أهليه وليس معه إلا العدد القليل فماذا هو فاعل لإيقاف الزحف الرومي الذي وصل ملازكرد واستردها؟ بعث إلى الإمبراطور يطلب الهدنة. وأتاه الجواب المرعب: لا هدنة إلا في الري...

صعق السلطان للجواب الذي لم يترك له من سبيل سوى الحرب وهو في عدد قليل ذكروا أنه لا يزيد على أربعة آلاف غلام وإمبراطور الروم في عدد أقله ستمائة ألف، وبعث السلطان يسترد من يمكن رده من عسكره وتوجه نحو ملازكرد حيث كان يخيم الإمبراطور وترددت الرسل بين الطرفين. النصر كان

محققاً لملك الروم الذي بلغ من اعتداده بجيشه وثقته بالنصر أنه سأل رسول السلطان : أيما أطيب أصفهان أم همذان ؟ قال : أصبهان فقال الإمبراطور : قد بلغنا أن همذان شديدة البرد ونحن سنشتي في أصفهان ويكون الكراع في همذان ! فقال الرسول : الكراع يشتي في همذان أما أنت فالعلم عند الله !

ويطنب المؤرخون المسلمون فيما كان الإمبراطور يقود من الجيوش ويحمل من الأموال . قالوا كان معه مائة ألف مقاتل ومائة ألف نقاب ومائة ألف حرفي ومائة ألف صانع وأربعمائة عجلة يجرها ثمانمائة جاموس عليها نعال ومسامير وألفا عجلة عليها السلاح والمجانيق وآلة الزحف وكان في عسكره بطريق ومعه منجنيق يمده ألف رجل ومائتا رجل ووزن حجره عشرة قناطير وكل حلقة منه مائتا رطل بالشامي وكان في خزائنه ألف ألف دينار ومائة ألف ثوب ابريسم (حرير) ومن السروج الذهب والمناطق والمصاغات بمثل ذلك وكان قد أقطع سلفاً البطارقة البلاد : مصر والشام وخراسان والري والعراق واستثنى بغداد قائلاً : لا تتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فإنه صديقنا (يعني الخليفة) ... وحين سأله السلطان ، مع السفراء العودة مع التعويض عليه قال : وهل أنفقت كل هذه الأموال العظيمة لأرجع ؟ .

وقال السلطان لوجوه عسكره معه : أنا صابر صبر المحتسبين وسائر في هذه الغزاة مسير المخاطرين فإن نصرني الله فذاك ظني في الله تعالى وإن تكن الأخرى فأنا أعهد إليكم أن تسمعوا لولدي ... واختار السلطان وقت صلاة الجمعة موعداً للهجوم قائلاً : سأطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يكون فيها جميع المسلمين يدعون لنا على المنابر فلعل الله ينفعنا بدعاء واحد منهم وإلا مضينا شهداء إلى الجنة ! وباغت الروم بالهجوم حتى صار في وسطهم مع أصحابه فانهزموا وتفرقوا كل جماعة في سبيل . وتبعهم بقية اليوم والليل التالي يقتل ويأسر فلم ينجُ منهم إلا القليل ... وامتلأت الوديان بالجيف وغنموا من الغنائم ما لا يحصى ... وكان بين هذه الغنائم إمبراطور الروم نفسه مع موكبه

وذخائره وأمواله ... وتقاسم الناس الذهب والفضة بالأرطال وغنم أهل المنطقة منهم بحيث صاروا أهل مال وغنى لمدة تزيد على القرن ...

كانت هذه أكبر كارثة تنزل بالروم حتى نهاية القرن الحادي عشر وكما أنه لم يؤسر خليفة من الخلفاء في التاريخ قط كذلك لم يسبق أن أسر إمبراطور أبداً سوى هذا الإمبراطور . وهزت المعركة الظافرة العالمين الإسلامي والبيزنطي هزاً عنيفاً . فبينا هي أعطت السلاجقة مجداً إسلامياً لم يكونوا يحلمون به إذا بأصدائها تبلغ أوروبا وتكون أحد الأسباب في تحرك الجموع الصليبية إلى الشرق . قالوا لم يعد باستطاعة الروم حماية البوابة فتطوعوا لها ...

الإمبراطور الأسير جيء به إلى السلطان فندد به وهو في القيود أياماً وقد يكون مر في بال الإمبراطور أن يقتل أو يشتري نفسه بمليون ونصف المليون من الدنانير لكن من المؤكد أنه لم يخطر بباله أن ينصب له السلطان عرشه بعد ذلك وأن يجلسه بجانبه ثم أن يكون حراً بعد أيام ! ..

تلك كانت سماحة الإسلام !.

الأفضل الجمالي

نحن في سنة ١٠٩٧م/٤٩١ . وفي أقصى شمال الشام ... وفي المعسكر الصليبي الغريب كل الغربة عن البلاد وأهلها .

المعسكر في هرج ومرج بين خيل وعربات وبياطرة وقسس ونساء وفرسان وحمير وأطفال .. إنها تحاصر أول مدينة في شمال الشام : أنطاكية . الفرنجة لم يكونوا واثقين إلا من شيء واحد هو كثرتهم العددية ... كانت المروج والأدغال والمستنقعات في شمال أنطاكية تعج بهم في ضجيج يصم الآذان ... أما عدا ذلك فكان التوجس والهلع والحذر هي المشاعر التي تكتسح الجميع ...

وفجأة سمع الصليبيون بخبر غريب : ثم مراكب إسلامية تقترب من شاطئ بلدة السويدية القريبة من أنطاكية . كانت مراكب جاءت من مصر ! وجاءت مسالمة ونزل منها وفد بالملابس الإسلامية يطلب مقابلة الزعماء من الغزاة ... هذا أول اتصال إسلامي مع الفرنجة .

وبين الحذر والأمل رحب زعماء الغزو الصليبي بالوفد الإسلامي واستمعوا إليه . كان وفداً يحمل رسالة سلام ! مصر كانت في ذلك الوقت على خصام عنيف مع القوى التي اكتسحت المشرق كله ، قوى السلاجقة الترك ، الذين جاؤوا يساندون الخلافة العباسية في بغداد . أما الخلافة الفاطمية في مصر فكانت قد أخرجتها من معظم بلاد الشام هذه القوى الفاتحة . فلما سمع الفاطميون بهبوط الجموع الصليبية على شمال الشام وجدت فيها حليفاً غير

منتظر لاسترداد بعض ما فقدت فيه . ما همها التساؤل عن غرض هذه الجموع ولا أبهت لتباينها الديني معها ولا سألت عن هدفها كل ما دخل في حسابها أنها قد ترضى بأن تقتسم النفوذ معها في الشام .

ولم يكن الخلفاء الفاطميون هم الحكام الحقيقيين في الأراضي التي تحمل اللافتة الفاطمية . صاحب السلطة الفعلية كان قبل وصول الصليبيين بعشرين سنة وإلى ما بعد وصولهم بثلاثين سنة أخرى هما أب وابنه : هما بدر الجمالي والأفضل شاهنشاه ابنه . هذان الاسمان كانا في تلك الفترة قد ابتلعا كل تألق الخلافة الفاطمية . وكل سلطات الخليفة فليس له من الحكم إلا الموكب الفخم والملابس الزاهية ! ومع أن للاسمين الرنين العربي إلا أنهما في الواقع كانا في الأصل من الجند الأرمن .

دخل الأب الإسلام مع مرتزقة الجند لدى الفاطميين ثم تسنم السلم درجة درجة حتى كان القائد الأول لعسكرهم في الشام حين أصيبت مصر بالشدة المستنصرية . وما أدراك ما هذه الشدة ؟ بلغ الجفاف في النيل أقصاه . وعز الإنتاج حتى الشح . وأقبلت المجاعة تسحق الناس سبع سنوات متواصلة عجاف . فكان موتى الجوع يملأون الطرق . وأكل الناس بعضهم بعضاً وهرب من هرب إلى بلاد الله الأخرى .

واضطرب الحكم ففي كل يوم وزير جديد ومع كل فجر قاض للقضاة مختلف ... في تلك الفترة الحرجة استدعى الخليفة بدر الجمالي الأب ليكون الوزير . وحين نجح الرجل في تجاوز الأزمة بقي صاحب الدولة أكثر من عشرين سنة وأعقبه من بعدها ابنه الأفضل حوالي ثلاثين سنة أخرى حتى قتل ... طغى الاسمان على أسماء الخلفاء أنفسهم . فما لهؤلاء من ذكر ...

حسب الأفضل الجمالي الابن أن الجموع التي هبطت على أنطاكية جموع من الروم البيزنطيين . وكان هؤلاء الروم في الفترات التاريخية السابقة

يكتفون بمهاجمة شمالي الشام فالتمع في رأسه أن ينتهز الفرصة ويقوم بعملين اثنين :

١ ــ أن يسترد بالقوة بعضاً من أرض الشام وبهذا الشكل هاجم مدينة القدس وأخرج منها السلاجقة التابعين لدمشق . وهكذا قدر له أن يكون هو المدافع عنها عند الهجوم الصليبي عليها وليس دمشق .

٢ ــ أن يتصل بالغزاة القادمين من الشمال ويقتسم معهم النفوذ والسيطرة فلهم الشمال يحكمونه كما شاؤوا . وله الجنوب يحكمه كما شاء ... وكان مغتبطاً بهذه الفكرة التي تجعله يكسب على حساب البيزنطيين والسلاجقة والصليبيين جميعاً ...

هذا العرض الأخير كان موضوع السفارة التي حملتها المراكب الفاطمية إلى الصليبيين عند أنطاكية .

وكان الزعماء الصليبيون من المكر وإخفاء النوايا بحيث بالغوا في الترحيب بالوفد وكتموا أهدافهم تماماً في الوصول إلى القدس وفي القبر المقدس . بل يبدو أن هذه اللعبة في المكر والخداع قد راقتهم فقد حاولوا إسدال غشاوة على أبصار السلاجقة في دمشق فأرسلوا إلى دقاق الملك فيها يطمئنونه على مصيره ويؤكدون له أنهم لا يريدون سوى استرداد المواقع التي كانت في الأصل للروم البيزنطيين أي الرها وأنطاكية واللاذقية . وبعثوا في الوقت نفسه إلى رضوان الملك بحلب يطمئنونه على ملكه فيها فلن يقربوه ...

وأتت هذه السياسة الماكرة ثمارها فاسترخت أعصاب دقاق وأخيه رضوان . زال رعبهما المتوتر وربح الصليبيون بوصول السفارة الفاطمية إليهم اعترافاً من ثاني الدول الإسلامية في المنطقة لا بوجودهم في المشرق ولكن بحقوقهم أيضاً فيها وبحياد هذه الدولة تجاه نواياهم في الغزو ...

وبلغ من مهارة المكر الصليبي أنهم ودعوا السفارة الفاطمية إلى المراكب

وزودوها بهدية ثمينة إلى الأفضل الجمالي : هي مجموعة من رؤوس السلاجقة رمز وفاق ولقاء .

أشقى ما في الأمر أن هذه السفارة تقبلت الهدية شاكرة وحملتها معها إلى مصر ! بعد أشهر فقط صعق الفاطميون حين وجدوا الصليبيين يطوقون عليهم بيت المقدس ! ويحتلونها ؟

أكان ممكناً أن يتعايش الثعلب والغباء ؟.

ياغي سيان

ليس بأرمني هذا الرجل المغمور وإن كان رنين اسمه في الآذان يوحي بذلك . إنه قائد من أبرز قواد السلاجقة الأتراك والسلاجقة كانوا لب الإسلام والمدافعين عنه في أواخر القرن الخامس سنة ١١م . وكان نصيب هذا القائد ياغي سيان أن يكون يوم الهجمة الصليبية في أنطاكية وأن تكون أنطاكية أول بلاد الشام التي يهاجمها الصليبيون القادمون من أوروبا والشمال ... كل حدة الحملة الصليبية الأولى وصدمتها كان عليه أن يتلقاها بصدره ... وقد قبل .

ولا نعرف للرجل أصلاً . كل ما نعرفه عنه أنه كان من مماليك السلطان السلجوقي أرسلان ، ثاني السلاطين السلاجقة الكبار وأن هذا السلطان عهد إليه بحكم أنطاكية لما عهده فيه من حزم وشجاعة . ولم تكن أنطاكية بالمدينة العادية . كانت من أقوى المدن تحصيناً . لا تقارن مناعتها وقوة حصونها إلا بالقسطنطنية تحيط بها الجبال العالية من الجنوب والشرق ويجري نهر العاصي في غربها وتمتد في شمالها المستنقعات والأحراش الكثيفة ولها سور يقوم فيه ٣٦٠ برجاً يمتد حتى قمة الجبل .. وكانت في نظر المسيحيين لا تقل في القيمة كثيراً عن القدس . فقد كانت ثالث مدن العالم أيام الرومان قبل الإسلام ومنها سمي المسيحيون بهذا الاسم وفيها أسس القديس بطرس أول أسقفية له بالإضافة إلى مكانها التجاري والحضاري وقربها من البحر .

نقطة الضعف لدى ياغي سيان أن سكان أنطاكية كانوا في أكثريتهم من الأرمن والسريان وكانت عواطف هؤلاء في المنطقة كلها مع الغزاة

الصليبيين . فماذا يفعل؟ بعضهم هرب من المدينة فعلاً أما الباقون فمن ذا الذي يضمن ولاءهم؟ وقرر ياغي سيان إخراجهم من البلد بحجة حفر خندق لها فصار هؤلاء وهؤلاء أدلاء وأعواناً للغزاة لا سيما بعد أن زج بطريقهم في السجن واستولى على كاتدرائية القديس بطرس كبرى معابد أنطاكية وجعلها مربط خيل !.

كان هذا الانقسام السكاني السريع في أنطاكية خطيراً ولم يكن لياغي سيان فيه حيلة أخرى وهو يرى إلى مئات الألوف من الغزاة حول المدينة بخيلهم وعرباتهم ونسائهم والأطفال والحمير وقعقعة السيوف والطناجر الغريبة تطوقه . ولقد بدأ الصليبيون ببناء حصن من حجارة بعض المقابر يزيد في إحكام الحصار . وإذا بعث ياغي سيان يطلب النجدة من دمشق وحلب والموصل وبغداد وأصفهان فقد مضى الشهران والثلاثة والخمسة ومضت سبعة أشهر وما أطل المدد ... فاتخذ ياغي سيان احتياطاته لحصار طويل ... حول المدينة . الصليبيون الذين يحاصرون البلد ملوا المقام وخافوا أن تصل الأمداد إليها فجأة فيحصرون بين نارين فبدأوا الهرب لا سيما بعد أن أخذ شبح المجاعة يتخطفهم وأخذ الفرسان يسقطون صرعى الجوع أمام الأسوار ودبت الفوضى وكثر الهرب وكان من جملة الهاربين بطرس الراهب القسيس المهلهل الثياب الذي كان من أكبر الدعاة للصليبيات في القرى الفرنجية والذي مشى أمام الحملة حتى أنطاكية ...

صحيح أن الأخوين دقاق ملك دمشق ورضوان ملك حلب جرب كل منهما حظه منفرداً لصد الصليبيين ولكنهما انهزما كلاً على حدة لأن الخصومة بينهما كانت في أقصاها . وصحيح أن ياغي سيان بعد أن رتب أوضاعه الداخلية حاول أن يأخذ الصليبيين على غرة في هجوم مفاجئ ولكن الكثرة غلبته ولم يكن من سبيل لإنقاذ أنطاكية إلا أن تصل النجدات أو يستمر الصمود ...

ولم تصل النجدات واستمر الصمود. وصار الصليبيون يقطعون رؤوس الناس الذين يصادفونهم في البراري أو يقتتلون معهم في المنطقة ويلقون بها إلى المدينة لهدم معنوياتها. لكن ياغي سيان صمد. وصمد حتى أتته الخيانة من حيث لا يحتسب... في حين أكمل الغزاة الحصار بإنهاء بناء القلعة أمام المدينة ووصلهم أسطول إنكليزي من عدة سفن إلى بلدة السويدية، مرفأ أنطاكية يحمل إليهم الزاد والسلاح وآلات الحصار ثم وصلهم أسطول من جنوا في ثلاث عشرة سفينة أخرى يصب حمولته أمامهم...

وذات ليلة تحركت الخيانة... كان ياغي سيان قد أظهر من الشجاعة وجودة الرأي والحزم ما لم يشاهد من غيره. ووزع أبراج المدينة وأسوارها على القواد والحراس وصادر المؤن في المدينة كلها وقنن توزيعها لتكفي الحامية. واحد من هذه الحامية اسمه فيروز الزراد كان قد تمنع فصادره ياغي سيان قسراً وأضمر الرجل الشر. يبدو أنه كان أرمني الأصل وقد أسلم ووثق ياغي سيان بشجاعته فسلمه أحد الأبراج الجنوبية ولم يحسب حساب إمكان خيانته. وبعث فيروز بعض أصحابه سراً إلى القائد الفرنجي البارز بوهيمند يعرض عليه تسليم برجه مقابل الأمان وبعض المال.

لم يكن بوهيمند واثقاً من هذا العرض لذلك أبقاه سراً لنفسه وأراد تجربته لا سيما وأن العديد من الأمراء الآخرين كانوا يطمعون في امتلاك أنطاكية. وكان الأمر يحتاج السرعة لأن أخبار بعض النجدات لياغي سيان بدأت تتوارد وتلقي الهلع في صفوف الصليبيين... وأسرع بوهيمند يدبر المال والرجال لاستلام البرج الموعود!

وذات صباح رأى الصليبيون علم بوهيمند يرفرف على البرج فتدافعوا نحوه... كان ثغرة ما لبثت أن زعزعت حامية المدينة لهول المفاجأة فأخذت في الهرب... في صباح اليوم التالي فتحت أبواب أنطاكية أمامهم وهرع إليهم الأرمن والسريان يدلونهم على مداخلها ومخازنها ويعاونونهم في قتل من فيها من

المسلمين . ولم يجد ياغي سيان من وسيلة سوى الفرار ، في جملة من فر من الجند ...
في طريقه عبر الغابات لقيه حطاب أرمني عرفه فضربه ببلطته ضربة شدخت رأسه وتركه للطير والبغاث في حين كان يقتل ويؤسر ويسبى من الرجال والنسوان والأطفال في أنطاكية ما لا يدركه حصر ...
وظل حلم الدفاع الإسلامي على محجري ياغي سيان حتى نبت فيهما العشب الأخضر !.

كـربـوغـا

قد تتساءلون وأنتم تسمعون كلمة كربوغا : أهي اسم لبعض النبات البري أم لأداة من أدوات المعامل أم هو شتيمة ... وقد تعجبون إذا علمتم أنه اسم لقائد كبير مسلم مغمور كان ركناً من أركان الدولة السلجوقية متولياً لجبهة رئيسية في جبهاتها في مطلع الهجمة الصليبية على الشام ...

مثل كربوغا كمثل الكثرة العظمى من قواد السلاجقة ، حكام البلاد الإسلامية المشرقية ما بين أواسط القرنين الخامس والسادس (أي ما بين أواسط القرن الحادي عشر والثاني عشر للميلاد) كربوغا كان من المماليك . صحيح أنهم من الترك ولكن لا يعرفون لهم أباً ولا أماً ولا ولاء إلا للسلطان الذي أنشأهم على السيف والترس وظهر الخيل والحرب . وقيمة كل امرئ منهم ما يحسنه . كانوا أدوات حرب . نابغهم القريب من حاشية السلطان هو الذي يفوز لديه بالقيادات ويترقى من الصغرى إلى الكبرى . كربوغا واحد من هؤلاء الذين أنبتهم العصر السلجوقي قواداً وحكاماً دون جذور .

يظهر اسم كربوغا بوضوح لأول مرة حين أرسله السلطان السلجوقي الرابع بركياروق لمعونة قواده في شمال الشام آقسنقر وبزان في وقوفهما ضد عمه تتش الطامع في السلطنة . أراد أن يقيم منهما ومن كربوغا سداً في وجه عمه لئلا يصل إلى إيران ويحاربه ويخلعه عن العرش ... ولكن تتش سار مع ذلك وراء أطماعه . من دمشق إلى حلب ليحارب هذا السد العسكري ثم ليتجاوزه إلى الجزيرة ثم إيران . وأسر فيها القواد الثلاثة فقتل آقسنقر وبزان وبعث كربوغا

معتقلاً إلى حمص . كان في باله أن يبادل عليه بمملوك له اسمه طغتكين معتقل لدى بركياروق . . .

ومشى القائد الظافر إلى إيران ولكن الدائرة دارت عليه ! وسحق جيشه بالخيانات التي ظهرت في صفوفه . وهكذا تحرر كربوغا طلبه بركيـاروق السلطان المنتصر من أولاد تتش ولما لم يكن له من إقطاع فقد أذن له السلطان بالاستيلاء على الموصل قاعدة بني عقيل العرب . مع أن الأمير العقيلي كان موالياً للسلاجقة ومصاهراً لهم . . . وحاصر كربوغا المدينة عدة أشهر حتى رفعت على سورها علم الاستسلام ! كان ذلك عشية هبوط الجموع الصليبية على أنطاكية وحصارها . . . وفيما كان الحصار يستمر أشهراً وردت الأخبار من أيران بأن السلطان كلف كربوغا بالوقوف للصليبيين وسرعـان ما وصلت الشائعة إلى الفرنجة بأن جيشاً سلجوقياً ضخماً في طريقه إليهم فحاروا ماذا يفعلون ؟ إنهم في السهول والأحراج أمام أنطاكية وليس لهم من وزر إلا سيوفهم وأنطاكية ذات الأسوار المنيعة ما تزال عصية . . . وبدأت موجة من الهرب تجتاح صفوف الفرنجة ! وبعد فترة قصيرة سمعوا أن كربوغـا تحرك بجيشه نحوهـم فازدادت موجة الرعب والهرب . ثم سمعوا أنه يحاصر مدينة الرها على الطريق بقواه . . . فبلغ القلق فيهم أوجه . كانت الرها أول إمارة آلت إليهم من صاحبها الأرمني فيلارتيوس وأول إمارة صليبية أقاموها . . . وها هي ذي تحاصر . . .

كان كربوغا ــ على ما يبدو ــ معتداً بجيشه ، غير مقدر مدى القوى الصليبية فأراد أن يفتح في الطريق إلى أنطاكية مدينة الرها . . كانت في رأيه مكسباً من المكاسب السهلة يضيفه إلى ولايته . وقضى ثلاثة أسابيع أمام هذه المدينة . لكنها بقيت صامدة والاستنجاد يتوالى عليه من أنطاكية أن يسرع . فترك الرها ليكمل الطريق . وكان توقفه أحد الغلطات المميتة !

حين وصل جيش كربوغا إلى أنطاكية كانت هذه المدينة قد سقطت قبل ثلاثة أيام فقط ! دخلتها جموع الصليبيين فوق الجثث . وكان صاحبها

ياغي سيان جثة مرمية في الغابات القريبة . ووجد الصليبيون بذلك الحماية التي يتوقون إليها وراء الأسوار ... وفي أثناء ذلك كان قد وصلهم أسطولان واحد إنكليزي والآخر من جنوا وحملا إليهم الزاد والسلاح وآلات الحصار ...

لكن مدة ثلاثة أيام لم تكن كافية لمواراة قتلى المجزرة الرهيبة التي تمت في أنطاكية عند دخولها ولا لتموين المدينة التي كانت قد استنفذت زادها أثناء الحصار الصليبي وما كان لدى الفرنجة من الزاد ما يكفي إذا حوصروا ... وها هم يحاصرون وكربوغا عند الأسوار . بعد أن اجتمع في مرج دابق القريب بقوى دمشق وسنجار وحمص وقتل فرق الاستطلاع التي زرعها الفرنجة على الطريق ...

انقلب الوضع الآن فأصبح المحاصِرون محاصَرين . وقرر كربوغا ألا يحارب . انتظر أن تسحق المجاعة الفرنجة في المدينة الفارغة ... والواقع أن القوت عدم بسرعة حتى أكلوا الأموات . وورق الشجر والدواب . وبلغ ثمن الرغيف ديناراً والبيضة الواحدة دينارين .. وتوالت أفواج الهاربين منهم في الجبال نحو البحر ..

كان ممكناً أن تكون هذه الاستراتيجية من كربوغا ناجعة لا سيما حين التقى الإمبراطور البيزنطي ببعض الهاربين فأبلغوه أن الفرنجة أبيدوا عن آخرهم فعاد بالمدد الذي كان يقوده إلى القسطنطنية ! لكن حين أصبح اليأس كالكابوس الرهيب فوق أنطاكية طلب الفرنج الخروج بجلودهم فرفض كربوغا إلا الاستسلام دون قيد أو شرط ...

وذات صباح بدأ الفرنجة يخرجون من أبواب المدينة بأعداد قليلة وقيل لكربوغا أن يلحقهم بالقتل فرفض حتى يتجمعوا . وحين تجمعوا وحملوا على القوى الإسلامية تفرقت هذه القوى بدداً ... هربت ولحقها الفرنجة بالقتل والأسر مسافات بعيدة وغنموا من الآلات والخيام والكراع والغلات ما لا يحصى .

وهرب كربوغا فيمن هرب ... كل منهم أراد أن يسلم جيشه ليبقى قوياً فخسر الجميع !

ثلاثة أيام تأخرها كربوغا في الوصول إلى أنطاكية كلفت العالم الإسلامي مائتي سنة من الحروب ! أيذكرنا هذا بالصهاينة سنة ١٩٤٨ ؟.

طغتكين

أما أن دمشق كانت مملكة فتاريخها كله سلسلة من الممالك ولا غرابة وأما أن يكون لهذه المملكة رأس اسمه طغتكين يحكمها أكثر من خمس وعشرون سنة فهذا ما يرفع الحواجب عجباً . ولا يعود هذا الرجل إلى القرون الأولى ... لا فهو من العهد الإسلامي لم يمض على غيابه عن الأفق الدمشقي تسعمائة سنة . وثب إلى الحكم في غفلة من الزمن لكن سرعان ما رأى الناس أنه جدير به فسكتوا عنه .

كان طغتكين مملوكاً تركياً من مماليك تتش شقيق السلطان السلجوقي الثالث ملكشاه رأى فيه تتش الذكاء والهمة فاصطفاه . ولما كانت عادة السلاطين اختيار بعض مماليكهم لتربية أولادهم ورعايتهم وتعليمهم استعمال السلاح والحرب فقد اختاره تتش لتربية ابنه دقاق . الاختيار لا يعني فقط اختيار معلم ولكن اختيار مرب يلازم الصبي ليل نهار ويصبح من مماليكه وقد يزوجه السلطان من أم الصبي لتكون ملازمته له كاملة . ويدعى بذلك أتابك أي الأب الأمير أو المربي . هذا ما كان من حظ طغتكين سماه تتش أتابكاً لابنه دقاق .

ولسنا نعرف أصلاً لهذا المملوك طغتكين حتى اسمه كان مستعاراً منحه إياه سيده تتش وهو مؤلف من مقطعين ويعني اللواء أو الباشق المحارب أما اسمه الأصلي فقد كتم تماماً كاسم أبيه لئلا يَعْرف العبد أصله ! ولم يكن يعرف العربية .. ظل حتى نهاية حياته أعجمياً . أنشده الشاعر ابن منير الطرابلسي قصيدة مطلعها

مني ومنك استفاد الناس ما كسبوا

فلما خرج قال له بعض أعداء الشاعر : انظر أيها الأمير قول الشاعر : مني ومنك إنه يهددك وكان طغتكين سمع الناس يقولون حين يهدد بعضهم بعضاً مني ومنك فوقع ذلك في نفسه وغضب وطلب الشاعر الذي اختفى وهرب من دمشق !

كما كان طغتكين من التقى الإسلامي بالمعنى البسيط القريب . ذكروا أنه طلب رجلاً يُعَيِّنه محتسباً فذُكر له رجل من أهل العلم فولاه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال الرجل :

إن كان ذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند فإنهما من الحرير واخلع الخاتم فإنه ذهب والرسول ﷺ قال : الحرير والذهب حرام على ذكور أمتي حلال لإناثها . فنهض طغتكين وأمر برفع طراحته ومسنده وخلع الخاتم من إصبعه !

على أن طغتكين كان من جهة أخرى إلفَ جهاد وقتال ، على ما نشأ وتعود . وتستطيع أن تعد له بين سنتي ٤٨٨/١٠٩٥ السنة التي تسلم الحكم فيها بدمشق وسنة ٥٢٢/١١٢٧ السنة التي توفي فيها أي خلال ٣٤ سنة ما يزيد على خمسين معركة أو رحلة لمعركة في أنحاء الشام . لم يكد يبقى موقع فيها لم يعرف طغتكين المحارب ، من ميافارقين في الشمال حتى عسقلان في الجنوب بما في ذلك شيزر وأنطاكية وطبرية والساحل وبيروت وحمص وبعلبك وبصرى والجولان وحلب والسلمية وماردين والبقاع وحماه وتدمر . ولعل ديناميكية الرجل وشدة همته تظهران إذا عرفنا أننا أحصينا له هذه الرحلات الخمسين في السنوات الأربع والثلاثين من آخر حياته التي أوفت على الثمانين . وكان قد زار قبلها بغداد وحارب في الري والشام مع سيده تتش وأسر ...

على هذه الحركة المستمرة لم تكن لوجه الجهاد فحسب إلا في الربع الأخير من حياته أما قبل ذلك فقد امتزج فيها عوامل شتى لعل أهمها أنه ما إن

نال حكم دمشق حتى أضحت هي قبلته وموضع دفاعه وبلده الذي لا يقبل لأحد أن يبعده عنه ... وبأي ثمن ولو بالقتل أو الاتفاق والتحالف مع الأعداء الصليبيين !

وعلى الرغم من أنه لم يتخذ لنفسه لقباً طول حياته إلا اللقب المتواضع أتابك فإنه كان يعرف أنه المتوج الوحيد في مملكة دمشق الممتدة في أيامه من جنوبي الأردن إلى ما بعد حمص وتدمر والتي كانت لها هنا وهناك امتدادات أخرى من أهمها بعلبك وتصل أحياناً إلى الرحبة وإلى الجزيرة .

وفي تاريخ طغتكين أكثر من حدث إنقلابي يكشف هذا الخوف من أن يزحزحه أحد عن دمشق فقد استكان للأمر الواقع حين كان دقاق ابن سيده تتش هو الملك وأيده ضد أخيه رضوان في حلب وما دام متزوجاً من أمه فهو بمثابة ابنه . وما إن مات دقاق وخلف طفلاً رضيعاً حتى انبسطت الآمال لطغتكين فإذا بالطفل يموت . لا تدري كيف مات ؟ وإذا بأخي دقاق يهرب من دمشق لا تدري فيم هرب ؟ ثم إذا بقبضة طغتكين تمتد فتسيطر على كل شيء . دون تعيين أو عهد وحين اشترك مودود صاحب الموصل معه في الهجوم على جبهة الصليبيين في طبرية وانتصرا الانتصار المؤزر لم يتردد طغتكين في تدبير قتله بخناجر الاسماعيلية في المسجد الأموي بدمشق وحين شاع الاتهام له بالقتل وأشارت إليه كل الأصابع وغضب الخليفة والسلطان السلجوقي منه لم يتردد في التحالف مع الصليبيين والحرب ضد المسلمين . ثم لما رضي عنه صاحب بغداد حمل إليهما الهدايا وعاد ببراءة تعيينه ... وعند ذلك استراح . حلت عقدة دمشق في نفسه . وتحول في الواقع إلى بطل من أبطال الإسلام يعاون الفاطميين ضد الفرنجة ويتعاون مع حلب ويدافع عن صور ويناور في حوران ... سيرته بعد ذلك سيرة المجاهد الكبير التي عقدت عليه الشام الآمال .

ترى من ذا الذي يذكر اليوم طغتكين المجاهد وحاكم دمشق الفرد قرابة ثلاثين سنة ؟.

حطين الأولى

صلاح الدين في التاريخ ضجيج يملأ الأجواء، وصنوج ما تزال تصدح. وأما الذين مهدوا لظهور صلاح الدين وكانوا قبل ظهوره جسوراً على طريقه فقد ذهبوا كأمس الغابر لا خبر ولا أثر. هل يعرف الناس مثلاً أن صلاح الدين آخر ظهر قبل ظهور صلاح الدين الشهير بسبعين سنة ونيف أي بعد بدء الحروب الفرنجية الصليبية بخمس عشرة سنة فقط وحقق الذي حققه صلاح الدين وبالقرب من مكان حطين نفسه؟

اسم هذا البطل مودود. إنه صلاح الدين الأول وصاحب حطين الأولى.

القصة هي أن البلاد من إيران إلى الشام كان المسؤول عن حمايتها والدفاع عنها هم قوات السلاجقة التي غزتها منذ عهد قريب وتقاسمتها إقطاعات عسكرية. سلطان هذه الجموع السلجوقية التركية كان مستقراً بجانب الخليفة في بغداد أو في أصبهان. فلما احتل الصليبيون سواحل الشام أخذ السلطان يأمر من مقره قواد بعض المناطق بحربهم. وكانت الموصل أهم مواقعهم القريبة من الشام لذلك أمروا الحاكم فيها واسمه مودود أن يحاربهم بالاتفاق مع صاحب دمشق طغتكين. وجاء الرجل بقواته الكثيفة إلى الشام وتلقاه طغتكين بالأحضان وسار الاثنان معاً نحو طبرية في شمال فلسطين.

كان ذلك أواخر صيف سنة ١١١٤ أي بعد ١٤ سنة من احتلال الصليبيين للقدس. ولم يكونوا قد توطدوا بل لم يكونوا قد امتلكوا جميع الساحل الشامي.

ويبدو أنه كان في رأس كل من القائدين السائرين للقتال موال مختلف يغنيه . فطغتكين كان يريد قمع الصليبيين وإظهار قوة المسلمين فحسب . وأما مودود وهو الأقرب إلى السلطان فكان يحلم بنصر يجعله أمامه جديراً بحكم مملكة دمشق الكبيرة ولم يكن هذا الحلم خافياً على طغتكين الذي كان يخشى أن يحل مودود محله !

وحشد الصليبيون للمعركة قواتهم جميعاً من أنطاكية حتى القدس. كانوا يرجونها معركة حاسمة. والتقى الجمعان عند بلدة الصنبرة شمال بحيرة طبرية . كانت المعركة كأنها ملحمة آخر الدنيا . أشلاء تتطاير وفرسان تعصف وسيوف تلتمع كالشهب وسط النقع الأسود وتصايح يصم الآذان وصليل وهزيم وسنابك ... وانسحق الجيش الصليبي كله. الذين استطاعوا الفرار منه لا يتجاوزون المئات عدداً . وانتثرت أثقاله وجثث قتلاه على الصعيد جيفاً للطير وللنتن وأضحى الطريق إلى القدس وهي فارغة من الحامية مفتوحاً ومثله طريق الشمال وليس من حامية في بلد تستطيع الوقوف في وجه الفاتحين المنتصرين. والتهبت الوساوس في صدر طغتكين ورأى أن سحق الجيش الصليبي نكبة له . كان يريدها معركة تأديب وتحريك فإذا بها تنقلب معركة تحرير ورأى أنه إذا تابعها فهو خاسر إذ قد يثير ذلك القوى الفرنجية القادمة من أوروبا فتحتشد ضد دمشق ويخسر حكمها ووجود مودود معه مؤقت . إنه إن تابع الحرب ودخل القدس فقد يأمر السلطان بمنح هذا الملك العريض لمودود ، وطغتكين لم ينعم بالملك إلا منذ سنوات معدودة. وهكذا أخذ يدبر لتكون المعركة لإرهاب الصليبيين فحسب ولتكون دمشق خالصة له !

ولست تدري كيف استطاع طغتكين أن يقنع صاحبه بأن يلوي رؤوس الجياد ويعود إلى دمشق. يروى أنه خوفه مغبة الإيغال في الأرض المحتلة فيداهم الخريفُ والشتاءُ من بعده القوات وهي غير مستعدة. وزين له العودة في الربيع

القادم بعد الاستعداد والإعداد... ومن يدري؟ لعله أراد أن يعرف أفكار مودود هل هو عائد إلى الموصل أم يفضل البقاء في الشام... ولدهشته وجد مودوداً يود البقاء عنده.

وفيما نجا الفرنجة من عقابيل الهزيمة المنكرة وبعثوا يطلبون النجدات من كل فج.

عاد طغتكين ومودود إلى دمشق... كانت أحلام هؤلاء القادة أصغر من أن تفكر في التحرير! كانت أنانياتها هي المسيطرة. وقرر طغتكين قتل صاحبه ولكن بخناجر الاسماعيلية!

وبينا كان القائدان خارجين من صلاة الجمعة في الجامع الأموي تقدم فتى مسكين من بين الجموع الحاشدة والسيوف كالأجمة المشتبكة وأصناف العساكر محتشدون فأمسك بتلابيب مودود وطعنه طعنتين لم يتحرك بعدهما سوى خطوات ثم سقط. أما القاتل فتناوشته السيوف فوراً وقطع رأسه ليعرف ثم أحرق... آخذاً سره معه!

من القاتل؟

لم يبق في الإمبراطورية السلجوقية من لا يشك في طغتكين. ولكن من ذا الذي يستطيع إثبات الاتهام بعد أن أحرق القاتل؟

وذهبت حطين الأولى مع الريح. كانت فرصة ضائعة لم تتكرر إلا بعد سبعين سنة!.

ريموند صنجيل: الأمير السيئ الحظ

الدنيا حظوظ. هكذا يقولون. ولقد يكون هذا القول صحيحاً إلى حد كبير بالنسبة لبعض البشر. ولعل من هؤلاء الناس ريموند صنجيل... أعرف أنكم لم تسمعوا به ولكنه أمير من أمراء الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى على الشام. بل كان يعتبر أكبر الأمراء. وكان منتظراً أن يكون له الحظ الأوفى من أي غنيمة يغنمها الفرنجة من الشرق... ولكن. الدنيا حظوظ.

كان أول سوء حظ أصاب الرجل فشله في المنافسة على امتلاك أنطاكية. القائد الصليبي بوهيمند النورماندي كان عمل على فتحها ثم اعترف له الأمراء الآخرون بإمارتها... إلا ريموند. رفض أن يتخلى عن المواقع التي احتلها رجاله جنوبي المدينة... ولما كانوا في الأصل قد عاهدوا إمبراطور بيزنطة على ردها له عند فتحها فقد أرسلوا حلاً للإشكال يدعونه إليها. ولكنه صمت حتى فاتت الفرصة واضطر ريموند صنجيل إلى المسير مع الصليبيين نحو القدس.

وحاول ريموند أن يقتطع لنفسه إمارة صغيرة في معرة النعمان وفي بلدة البارة وما حولها بمعونة السريان والأرمن ولكنه فشل في المعركة أمام جيش حلب فلحق بالجماعة السائرة إلى القدس وفي النفس ما فيها... وذلك بعد أن دعا الأمراء جميعاً إلى الاجتماع في مطلع سنة ١٠٩٩ وعرض عليهم مبالغ ضخمة من المال كي يعلنوه زعيماً أوحد للصليبيين ولكن عرضه قوبل بالفتور... وإن صارت هذه الزعامة واقعاً عملياً...

ودخل الصليبيون القدس وكان عليهم أن يختاروا شخصية منهم لحكمها ولم يكن ثمة سوى ريموند وأمير آخر أقل منه هو غودفري دي بويون . وكان ريموند أوفر ثروة وأكثر قوة . فضلاً عن قوة شخصيته ومرونته السياسية وعلاقته الطيبة مع بيزنطة ولكن الأمراء الآخرين خافوا كل هذا منه وبخاصة علاقته مع الإمبراطور البيزنطي وكانوا يكرهون ذلك كل الكره ويقال إنهم عرضوا التاج على ريموند فتردد أو تعفف وقال : لا أضع على رأسي تاجاًمن ذهب حيث وضع السيد المسيح على رأسه تاجاً من الشوك . وسرعان ما تحول الأمراء إلى غودفري الذي رفض تحرجاً من أن يقدم على ما رفضه ريموند ولكن بقية الزعماء أجبروه على القبول فوجد الصيغة التي تجعله يقبل : سمى نفسه فقط حامي القبر المقدس . ولكن التاج كان قد أفلت من رأس ريموند وكان عليه أن يفتش عن حظه في مكان آخر ...

شارك مع الصليبيين الآخرين في الاستعداد للمسير إلى أقصى الجنوب من عسقلان لفتح الطريق إلى مصر . ونجحت الحملة وباغتت الفاطميين وهزمتهم فبعضهم ألقى بنفسه في اليم وبعض اختبأ في شجر الجميز فأحرق الصليبيون عليهم ذلك الشجر ... وهرب القائد الفاطمي الأفضل الجمالي بعد أن خسر عشرة آلاف قتيل !

وضرب الصليبيون الحصار حول عسقلان ... وكادت تستسلم لريموند لأنه الأرحم كما عرفوا عنه في القدس فطلب إليه غودفري التخلي عن المدينة لتبقى تابعة للقدس فاستاء الرجل وفضل أن تبقى في يد المسلمين . وانسحب ... ونجت عسقلان . لكن ريموند بقي دون إمارة ! وعاد يبحث لنفسه عن إمارة في السمال .

كانت مدن الساحل الشامي حيفا عكا . صور صيدا بيروت . طرابلس جبلة ما تزال في يد المسلمين ووصل ريموند الصنجيلي إلى اللاذقية

واحتلها وسلمها لبيزنطة لعله يسترد أنطاكية. ظل يمني نفسه بهذا الأمل. وكان قد هاجم أنطرطوس وعرقه بين طرابلس واللاذقية فاحتل الأولى وفشل في الثانية وهكذا لم يجد أمامه من سبيل سوى تملق الدولة الرومية البيزنطية لعلها ولعلها...

وأخيراً شد ريموند الرحال إلى القسطنطنية صيف ١١٠٠ للاتفاق على عمل حاسم ضد آمر أنطاكية. وعلى الرغم من أن الإمبراطور وريموند سمعا هناك بوقوع بوهيمند أمير أنطاكية في الأسر إلا أن هذا لم يمنعهما من تهيئة حملة صليبية يقودها ريموند إلى الشام. ولكن... كان مد هائل من الغرب الأوروبي من البشر قد سمع بنجاح الصليبيين في الشرق فأتى يجرب حظه. جموع ضخمة من النساء والأطفال والمحاربين صارت تتسابق للوصول واستطاعت هذه الجموع أن تجرف حملة ريموند معها إلى شمال الأناضول... وجرهم سلاجقة الروم طويلاً إلى المناطق النائية القاحلة ثم كروا عليهم فانهزموا شر هزيمة. ريموند نفسه هرب عن طريق البحر الأسود... إلى القسطنطنية تاركاً ما يزيد على ١٦٠ ألف قتيل في ساحة المعركة...

ركب ريموند بعد ذلك مع باقي الفلول الصليبية إلى السويدية، ميناء أنطاكية، فقبض عليه غريمه أمير المدينة بتهمة خيانة الصليبيين واعتقله في القلعة ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بالتنازل عن جميع إدعاءاته في أنطاكية واللاذقية.. وأقسم على ذلك... وخرج ريموند من السجن كالديك المنتوف. وتوجه يجرب حظه أمام مدن أخرى...

بدأ بالاستيلاء على أنطرطوس مستعيناً ببعض الأساطيل القادمة من جنوا واتخذها قاعدة لأعماله يهاجم منها طرابلس ولكن جيشه كان أصغر من أن يستولي عليها. فهادن صاحبها وأخذ يتلهى بتصيد بعض الحصون وقد جرب الهجوم على حمص فلم يفلح... ولكنه نجح في احتلال جبيل...

وأخيراً عاد يستغل كل قوة فرنجية قادمة لحصار طرابلس! وبنى قلعة أمامها لإحكام الحصار. ولكنه ما لبث أن توفي في هذه القلعة!..

وغاب ريموند صنجيل. غرق في أسطر التاريخ لكن بقي منه شيء. القلعة التي بناها ما تزال إلى اليوم قائمة بجانب طرابلس وتحمل اسم قلعة صنجيل!.

دايمبرت البيزي

حين وصل صاحب هذا الاسم إلى المشرق كان قد سبقه هو وأصحاب مدينة بيزا التي ينتسب إليها تاريخ طويل من الحروب الصليبية ضد المسلمين في إسبانيا ... استغلوا فترة ملوك الطوائف هناك في القرن الحادي عشر وأعملوا السيف بالمسلمين وأغرقوا أساطيلهم وحاصروهم بكل وسيلة ليستولوا على تجاراتهم ووقفوا بجانب ملك قشتالة الفونس السادس يكتسحون معه ما يكتسح من الأرض شمالي الأندلس وسقطت في ذلك الوقت فيما سقط مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ قبل الدعوة للصليبيات ضد المشرق بعشر سنوات ...

كان دايمبرت نموذج التاجر البيزي الجشع رغم ماعليه من مسوح رجال الدين. وقد وقف بجانب البابا أوربان الثاني يوم الدعوة للصليبيات ثم كان المندوب البابوي في الحرب الصليبية التي شنها ملك قشتالة ضد المسلمين. وعلى الرغم مما ثار حوله من الشبهات الدينية ومن السلوك الملتوي والطمع المادي فقد تمكن من أن ينال من البابا لقب المندوب البابوي في المشرق وذلك حين وصل الخبر بموت المندوب البابوي الأول في أنطاكية قبل الوصول إلى القدس والقبر المقدس!

واستعد دايمبرت للسفر إلى الشرق في موكب ضخم: أسطول بيزي يبلغ ١٢٠ سفينة تحمل التجار والحجاج والمغامرين الحالمين بما سوف يحصلون عليه من الثروات والامتيازات. وحاشية واسعة لا تنقصها الملابس الزاهية

والدانتيلات والشارات الحمراء والصلبان اللامعة ... وألقاب تبهر الأسماع : أليس دايمبرت برئيس أساقفة بيزا ومندوب البابا ممثل السيد المسيح على الأرض ؟.

في هذه الأثناء كانت الحملة الصليبية الأولى قد تحركت على أرض الشام من أنطاكية إلى المعرة إلى طرابلس والساحل حتى دخلت القدس في المذبحة المشهورة دون أن يكون معها من يمثل البابوية ... وهناك حاروا من ذا الذي يحكم في القدس وفي القبر المقدس . ارتبكوا وتحرج بعض الأمراء من التصدي للحكم . لو كان معهم مندوب للبابا لانحل المشكل وقامت دولة دينية في ذلك الجو من الحماس الديني ولكن غيابه فرض عليهم أن يتصرفوا . واختاروا من بينهم أميراً هو غودفري دي بويون وجد لنفسه لقباً دينياً ــ عسكرياً يحل المشكلة هو حامي القبر المقدس !

بعد شهر وبعض الشهر من ذلك هبط أرض الشام دايمبرت المندوب البابوي الجديد فهل يسلمون إليه الأمر ؟ نزل مع الأسطول البيزي في اللاذقية ورحب به وبأسطوله أمير أنطاكية لعله يستغل ما تحمل الحملة من قوة . ثم رافقه إلى القدس في موكب من الرجال والنساء والأطفال يزيد على بضعة آلاف . قاسى الكثير منهم من المجاعة ونقص التموين قبل أن يصل . ولكن دايمبرت كان مستعجلاً يريد أن يلحق بالقدس قبل أن تتوالى فيها التطورات . كان يحلم أن يكون البطريق الأول لبيت المقدس . ولكنه حين وصل وجد أنهم اختاروا بطريقاً يدعى أرنولف ... واستخدم دايمبرت كل ألقابه وقوته الدينية لإزاحة البطريق المنتخب وتسلم المنصب مكانه ونجح في ذلك وركع أمامه الأمراء يطلبون منه توليتهم على أماراتهم ! كان ذلك يعني وصول دايمبرت أقصى ما يتمنى . أضحى السيد الأعلى للفرنجة الغزاة والمندوب البابوي السامي وممثل السيد المسيح في أرض المسيح . وبدأ كأن حكومة تيوقراطية دينية قامت في بيت المقدس . ومع أن غودفري ، حامي البيت المقدس توفي بعد قليل إلا أنه كان

قبل موته قد اختصم مع البطريق على حكم بعض البلدان . كان الغرور باللقب الذي حمله دايمبرت من البابا يحمله على التعجل في ممارسة السلطة الدنيوية على الجميع ...

وثار الخلاف بعد وفاة غودفري حول من يخلفه . ووقف أنصار بطريق القديس السابق جبهة واحدة ضد أطماع دايمبرت يريدون أن يخلف غودفري أخوه بلدوين . وكان الرجل في الرها بالشمال فبعثوا يستدعونه . وحين وصل لم يتردد في أن يتخذ لنفسه لقب الملك . وكان ذلك ضربة لدايمبرت الذي لم يكن مضى على حكومته خمسة أشهر ، ولكنه لم يجد مفراً من الحضور إلى الكنيسة العظمى في بيت لحم وتتويج بلدوين بيديه ... كان ذلك بمثابة الرشوة للملك الجديد لئلا يشكو سوء مسلك دايمبرت وفضائحه للبابا . ولكن بلدوين شكاه بالفعل وجاء مندوب بابوي للتحقيق . وكانت الاتهامات دامغة . وعزل دايمبرت .. ولم ينفعه التنازل عن أطماعه في إقامة حكومة دينية في القدس فقد علم بلدوين أن دايمبرت كان يسعى لإعطاء ملك المملكة إلى صديقه بوهيمند وبيته في أنطاكية ... ودخل بطريق القدس السابق أرنولف على الخط فزاد النزاع بين الطرفين ... وفي طوله وحدته ... وقبل أن يغادر دايمبرت القدس إلى أنطاكية ليستقر بها تعجل بلدوين في اختيار بطريق جديد عرف عنه اعتزاله السياسة واشتغاله بالدين ... ولكن البطريق الجديد لم يطل عهده لأن البابا بعث يحقق ثم عين مندوباً بابوياً آخر اسمه غيلين ما لبث سنوات حتى توفي ... وحين ذاك كانت مساعي أرنولف البطريق القديم الأول قد أثمرت بعد اثنتي عشرة سنة فصار مرة أخرى بطريق القدس ...

وتتساءل أخيراً ما الفرق بين رجال الدين الصليبيين والأمراء الدنيويين من الأطماع والمؤامرات والزحام على المناصب وارتكاب المفاسد ؟.. ما الفرق يا ترى ؟.

ابن عمار

فخر الملك عمار بن محمد بن عمار، قاضي طرابلس الفاطمي وحاكمها قبل تسعمائة سنة لو تحدث هذا الرجل عن حملة الفرنجة الأولى فماذا كان يمكن أن يقول؟ كان يقول.

يوم وصلت حملة الفرنجة إلى أنطاكية وعسكرت تحاصرها سنة ١٠٩٧ لم آبه كثيراً للأمر فلم يسبق للروم أن هاجموا طرابلس بشكل جدي ثم إن أمير المؤمنين أعز الله ملكه أرسل سفارة من القاهرة إلى الفرنجة عند أنطاكية وعلمنا من أخبارها ما يطمئن من الاتفاق على قسمة الشام معهم فشماله للفرنجة وجنوبه لأمير المؤمنين الفاطمي في مصر وفي هذا ما سوف يريحنا من السلاجقة وصلفهم وتجبرهم وتعصبهم السني ... ولقد تلقيت بالشماتة هزيمة الملك دقاق ابن تتش ملك الشام أمام الفرنجة في شيزر ...

ما ركضت نذر الرعب واخترقت أسوار طرابلس وأقضت كالأشباح مضاجع سكانها إلا يوم معرة النعمان. سمعنا بذبح النساء والأطفال ودوس الشيوخ بحوافر الخيل والهدم والحريق وملء الآبار المملوءة بالزيت ماء لتفيض وتختلط بالدماء الجارية. يومها زاد ترحمي على والدي أبي الحسن علي جلال الدين الملك وجدي القاضي أبي طالب الحسن بن عمار. ماذا تركوا لي من الإرث الثقيل وكيف أحمي البلد وأنا شبه مستقبل بها أعمل بالتجارة ولا جيش قوي عندي؟ وقد لا يساندني أسطول أمير المؤمنين! وتوالت الأخبار تترى بوصول الفرنج إلى شيزر ومهادنة الأمير المنقذي فيها لهم وتقديمه العلوفات والمؤن

والأدلاء وتحركهم عنه فرأيت أن أسلم المواقف أن أهادن فما لي قبل بهذه الجموع وهمجيتها المرعبة ...

وحين أطلت أوائلهم تحوم حول أسوار طرابلس أسرعت بإرسال الرسل إليهم وعقدت معهم الاتفاق على دفع بعض الأموال. أليست أموال الزكاة تدفع رغبة أو رهبة؟ وبادرت فرفعت على الأسوار أعلامهم في كل موقع يتبعني تعبيراً عن الولاء وجاءتني رسلهم وأدهشها ما رأت من ثروة المدينة فطمعت بالمزيد من الجزية وعبر الفرنج عن ذلك بمحاصرة بلدة عرقة التابعة لإمارتي. فزدت فيها فيما كان فريق فرنجي يستولي في شمالي على أنطرطوس (فبراير ١٠٩٩) ثم على جبلة ولم أبال كثيراً بذلك ما دامت طرابلس قد سلمت وما دام قاضي جبلة أبو محمود عبيد الله بن منصور يحاول منذ فترة الاستقلال بنفوذه فيها. ولكنه لم يفعل كما فعلت فدفع المال والخيل لدفع البلاء العظيم... وبقيت أربعة شهر أنتظر تحركهم عني حتى صرفهم الله بالحسنى وتابعوا المسير على الساحل نحو الجنوب حتى القدس ...

لم تمض سنة على ذلك حتى فوجئت بموكب فيه بضعة آلاف من الرجال والنساء وعلى رأسه بلدوين الملك الذي اختاروه ليخلف صاحبهم المتوفى في القدس فقمت مرة أخرى بتقديم حاجتهم من الميرة والغذاء وقاية وخوفاً وحذرته من الكمين الذي نصبه لهم دقاق ملك دمشق على الطريق عند جونية. لكن الفرنجة لعنهم الله لم يكن تركهم لطرابلس إلا مؤقتاً فبعد أن شهدوا ثروتها ورخاءها كان يجب أن أدرك أنه لا بد عائدون إليها. وقد عادوا بالفعل. فهم لا يحفظون الجميل ولا يرتضون السلام والمهادنة. سيوفهم الثقيلة هي التي تقودهم لا رؤوسهم.. فما شعرت بعد فترة قصيرة إلا وكبير الفرنجة ريموند صنجيل يقف بمعسكره أمام أسوار طرابلس... وما كان بإمكاني أن أمسك العصا من الوسط وأهادن وبلدي هو المستهدف فقبلت مضطراً بالحرب المفروضة على كرهي لها. إنه الدفاع عن الكيان. وأرسلت برغمي

أطلب النجدة من القوة السلجوقية القريبة في دمشق وحمص . ولبيا يرحمهما الله النداء وأنجداني بألفي فارس من دمشق وبقوة حسنة من حمص وكان ريموند في قوة صغيرة لكن اللعين ثبت في المعركة وحاربنا بقواته القليلة . ومن المؤسف جداً أنه هزمنا عند الأسوار وقتل جنده منا الكثير . وحاصرنا وفرض الجزية قبل أن ينسحب . كان ذلك في أبريل سنة ١١٠٢ . ولم تنته حملته حتى استغل وصول أسطول جنوي قاتلهم الله جميعاً فحاصرنا به من البحر لعل ولعل فلما لم ينل مطمعاً انصرف إلى ميناء جبيل في الجنوب من ممتلكاتنا فحاصر قلعة صغيرة براً وبحراً حتى أخذها سنة ١١٠٤ وأخذ أموال الناس وأتى عليهم بألوان العذاب والعقوبة ومنح الجنوية الذين أعانوه ثلث البلد ... وهكذا قص ريموند جميع الأجنحة التي كانت تتبعنا في طرابلس فبقينا كالدجاجة المنتوفة وحين وجد أننا ما نزال صامدين يأتينا رزقنا من البحر بنى قرب الأسوار قلعة ما تزال قائمة وتعرف باسمه . ليقطعنا تماماً عن العالم الخارجي واستعان في بنائها بالميرة والأخشاب والمعدات التي استوردها من قبرص وبالموارنة الذين يسكنون الجبال وراءنا ... حتى اختنقت طرابلس بمن فيها ... وعبثاً حاولنا إحراق القلعة أو هدمها ! . لكن في إحدى المرات سقطت بعض أجزائها المحترقة على ريموند اللعين فلم يلبث أن توفي ! .. هل تخلصنا منه ومن التهديد ؟

كنا في طرابلس آخر مدينة صامدة على الشاطئ الشامي . وقد بادرت فذهبت بنفسي إلى دمشق أستنجد ثم سافرت إلى بغداد للغرض نفسه فلم أظفر بسوى الكلام المعسول . وعدت بخفي حنين لأجد أن أصحاب مصر الفاطميين قد دخلوا البلد بعد أن أطمعهم فيها ذوو النفوس الضعيفة من الخائفين . ولأجد أن موت صنجيل لم يخلصنا من الطاغية فقد ثبت بعده ابنه غير الشرعي برترام يتابع كل أعماله ... وهكذا سقطت قلعتي عرقة بيده وعلى الرغم من الخصومة التي قامت بين مدعي الإرث فقد تركت طرابلس لبرترام . وماذا أقول عن سقوطها فقد تقاعس عنها المدد الفاطمي وذلت نفوس الناس

وقبلوا أن يخرجوا سالمين منها بعد أن رأوا بأعينهم الاسطول الجنوي يحاصرهم من البحر ... ولم يف الفرنجة بعهودهم إلا لبعض الناس ورأيت وقلبي يتقطع أعمال النهب والدماء والقتل ... في بلدي الأثير وأفجع ما جرى أن مكتبة القصر التي كان فيها ٤٠٠ ألف مجلد وفيها النساخون يعملون ليل نهار دمرت وأحرقت بكاملها ويا لخسارة العلم الذي ضاع ! ..

ويصمت ابن عمار ليستعرض صامتاً أنه صار والياً على بلدة الزبداني في الشام بعد ذلك ثم وزيراً لمسعود صاحب الموصل سنة ٥١٢ ثم سفيراً للخليفة المسترشد لدى إيلغازي الأرتقي .. ثم ... ثم ضاع خبره . لم يسجل أحد أين مات !.

ولا متى مات ؟.

أُنُــر

في التاريخ الفرنسي ثم وزيران مشهوران تعاقبا على الحكم وأحدهما تلميذ الآخر عرف الأول بشجاعته وجرأته والثاني بمكره ودهائه فعل الثعالب. فكان الناس يقولون:

ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد.

وفي التاريخ الإسلامي مثيل لهذين الوزيرين يمكن أن نقول بسبب شجاعة الأول ومكر الثاني أنهما الأسد والثعلب. هما طغتكين وأنر... ولقد تحدثنا من قبل عن الأول ذلك الأتابك الديناميكي الذي أسس أسرة حكمت مملكة دمشق. أما الثاني فكان مملوكاً له ولهذا كان يسمى معين الدين أُنُر الأتابكي! وكان سياسياً أكثر منه محارباً وقائد جيش.

ويبدو أن الظروف التي وجد فيها أنر هي التي جعلته بأخلاق الثعالب أو أوضحت فيه هذه الصفة المتلونة التي كانت دمشق في عهده تحتاجها. فقد كان عماد الدين زنكي، والد نور الدين حوالي ١١٣٥ يحاول بعد أن سيطر على الموصل واحتل حلب أن يكمل ذلك بالسيطرة على دمشق ليكمل له مثلث المدن الثلاث الذي يستند إليه في مقاومة الصليبيين على جميع الجبهات في الشمال الجبلي والغرب الساحلي. وقد حاول زنكي ذلك وحاور عبثاً القوى المسيطرة على دمشق...

وذات يوم فوجئ بوصول كتاب إليه من ملك دمشق اسماعيل بن بوري يستدعيه فيه لاستلام المدينة وإلا فإنه سوف يسلمها للصليبيين ولا يشترط في

الكتاب سوى شرط واحد هو أن يمكنه زنكي من رقاب رجال الحاشية الملكية ليقتلهم جميعاً . ولم يكن زنكي يأبه لقتل هؤلاء فقد كان يرجو ذلك ولكنه عرف الحكاية بسرعة . عرف أن اسماعيل بن بوري الذي بدأ عهده قوياً محارباً فتح حماه في الشمال وفتح حصن بانياس بالقوة واستخلصه من الصليبيين يبدو أنه أصيب بوسواس في عقله فانكمش عن الناس وبدأ حملة من الظلم والتقتيل واتهم حتى أمه ببعض القواد ... وكانت الأم زمرد خاتون من قوة النفس بحيث دبرت قتله أمام أعينها ... ووضعت أخاه بدلاً منه على العرش .

أثناء تحرك زنكي ، وفي أمله أن يستولي على المملكة برز معين الدين أنر بين شخصيات الجيش الأتابكي . ليقول : لا ! للقادم الزنكي وأغلق الأبواب دونه واضطره أن يعود خائباً بعد أن عقد هدنة مع الدماشقة الذين استجاروا بالخليفة ليرحل زنكي عنهم ! وبدأ دور معين الدين أنر بالتوضح حين أخذ يهدد زنكي باستدعاء الفرنج إلى البلد كلما ضيق زنكي عليها الحصار . صار يلعب على الحبلين دون أن يأبه للهدف الكبير الذي وضعه زنكي بتوحيد القوى الإسلامية في الشام ضد الصليبيين . كان حكم دمشق لديه أغلى من الوحدة وأولى !

وصار أنر أتابك الجيش . فالدولة في يده . وتزوج من أم الملك وأضحى الحاكم الفعلي للمملكة فهو كما قيل عنه « الجملة والتفصيل » . على أن زنكي لم ينس البلد وأراد إنذارها بقوته فهاجم بعلبك بالقرب منها واستولى عليها سنة ١١٣٩ في مذبحة مرعبة ظالمة فزاد ذلك من تصميم الدماشقة على رفض سلطته ومقاومته ... بدل أن يرتعبوا منها . وازداد أنر قوة فأضحى الرجل الأول في المملكة . وتحالف مع ملك القدس الفرنجي وأرسل إليه سفارة تعقد التحالف ... وضخم للصليبيين دور زنكي وأطماعه ما استطاع ... أضحت دمشق بيضة القبان بين الطرفين !

وَقَوِي التحالف بعد أن زار أنر بنفسه مملكة القدس الفرنجية وزار

نابلس وحيفا وطبرية وسبسطيـة . وثمنـاً لذلك الحلـف وعـد أنـر الفـرنجة بمساعدتهم في الاستيلاء على بانياس (على الحولة) التي أعلن حاكمها تبعيته لزنكي . ونفذ أنر الوعد . . . وكان غزوها مذبحة رهيبة بعد حصار طويل . وانشلت حركة زنكي في المنطقة الجنوبية بهذه اللعبة السياسية فانصرف غالباً إلى الشمال منذ سنة ١١٤٠ واستفاد الملك الصليبي من الفرصة فأخذ يبني القلاع حول مملكته مثل قلعة صفد في الشمال وقلاع بيت لحم وعسقلان ويبني على جبهة مصر في الجنوب .

على أن الدور الضخم الذي لعبه أنر إنما كان في الحملة الصليبية الثانية بعد مقتل زنكي وتبنى ابنه نور الدين آماله وأطماعه في دمشق . هنا قلب أنر المعادلة وأضحى يرعب الصليبيين بقوة نور الدين . كانت الحملة قد أصابتها في الطريق عدة مصائب لكن من نجا منها كان كافياً لهجوم قوي على الإمارات الإسلامية مما أرعب كل الرعب نور الدين . وأخطأ قواد الحملة ، حين اجتمعوا في عكا إذ قرروا الهجوم على حليفتهم دمشق باعتبارها النقطة الأضعف في الجبهة الإسلامية فلجأ أنر على الفور إلى الاستنجاد بنور الديـن وتخويـف الصليبيين من تدخله . وتصدع الحلف الدمشقي الصليبي .

كان نور الدين يغازل البلد ويعاملها على الموجة الطويلة لئلا يثير شيخها الأتابك معين الدين وقبل أن يتحرك الصليبيون نحوها سنة ١١٤٨ كان قد تزوج من ابنه أنر وقد عقد معه الصداقة أملاً في أن ينهي العلاقة الودية التي كان أنر يحرص على إبقائها مع الفرنجة ولكن مسيرهم إلى حصار دمشق قطع هذه العلاقة تماماً . . .

وأمام أبواب دمشق تحطمت بعد اليأس وموجة الهول والرعب الحملة الصليبية الثانية وفشلت . قالوا إن وعود أنر وأمواله لعبت دورها في هذا الفشل المزري الذي انتهت إليه . إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا وملك القدس انسحبوا عن الأسوار بعد أن كانوا أمامها . ولكن هل أدى ذلك إلى إدخال جندي من

جنود نور الدين إلى المدينة للدفاع ؟ أبداً ! حتى حين طلب نور الدين أن يحتمي جنده المساعد في المدينة عند الهرب رفض ذلك أنر ...

ودافع الرجل عن المملكة مرة أخرى حين حاول الفرنجة احتلال حوران وصرخد مسترداً في العملين سمعته التي كان قد فقد ! ومات أنر بعد قليل. وظل الحكم عليه دوماً بين مد وجزر ...

أليس من حق الكثيرين أن يعتبروه من أمكر الثعالب ؟.

أسامة بن منقذ

في أواخر القرن الثاني عشر أي قبل ثمانمائة سنة كان يرود ما بين الجامع الأموي بدمشق وباب البريد رجل مهيب يدرس علم البديع في المدرسة الحنفية . كان شيخاً ذا قامة ممشوقة كالرمح . وعمر وصل السادسة والتسعين . وهب له السلطان صلاح الدين الأيوبي منزلاً وأعاد له إقطاعه بعد أن استدعاه من حصن كيفا حيث اختار العزلة والنظرة السوداء للحياة . كان أمجاداً تمشي . يجر وراءه لقب الإمارة وشهرة شعرية نثرية تسلكه مع الشعراء والأدباء وقد فرطت في حياته سفارات ذهب فيها وأتى . ومؤامرات حاكها ولقي حلوها وعقابيلها ، وملوك زارهم وأمراء صليبيون ومواكب صيد وسيف طويل النجاد ... وما شئت من الحديث والذكريات التي تحتضن القرن الثاني عشر الصليبي كله فقد ولد مع الصرخة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٠ ولكن في بلدة شيزر . ورافق الأحداث في دمشق ومصر والقدس والجزيرة ٩٦ سنة وكان حياً يوم حطين وعاش بعدها سنة واحدة قبل أن يموت سنة ١١٨٨

هذا الرجل هو أسامة بن منقذ . كان اسمه الاسم العربي الوحيد البارز في القرن كله بين عشرات الأسماء الأعجمية من تركية وفرنجية كما كان نموذج الفارس العربي الفرد بين ألوان من الفرسان والمحاربين ...

وبلدة شيزر القابعة على أكمة مرتفعة شمالي حماه في سورية قلعة حصينة على نهر العاصي كانت مقر إمارة أهله بني منقذ وكان ممكناً أن يكون أسامة أميرها فقد أعده عمه الأمير ورباه لهذه المهمة فلما ولد للعم ولد قال والد أسامة لابنه : إرحل ! فلم يعد لك مكان في شيزر ! كانت شجاعته وجرأته منذ

طفولته. واستهانته بكل صعب تجلب عليه حسد الأمراء الآخرين ثم صارت تحرك الضغائن في نفس عمه عليه. رأته جدته لأبيه ذات مساء داخلاً البلدة وبيده رأس أسد ضخم كان قد اصطاده فأسدت إليه النصح وأخافته من عمه قالت: «ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشة ونفوراً ...».

ومنطقة شيزر الخالية اليوم كل الخلو من أي وحش كانت تعج أيام أسامة بالوحوش من ذئاب وأسود وحمر وحشية وغزلان وقد تمرس أسامة فيها بالصيد سبعين سنة لكنه لم يشهد القتال النظري في الصيد البري فقط ولكن تمرس به عملياً في عدد من المعارك التي حضرها في شيزر وحماه ثم في عسقلان وبيت جبريل في فلسطين وفي شبه جزيرة سيناء وفي مصر ثم في ديار بكر والموصل. كانت له في كل ناحية من بلاد الشام ومصر معارك حتى سماه المؤرخ الذهبي «أحد أبطال الإسلام».. على أن الخشية من بطش عمه حرمت شيزر منه ...

وخرج أسامة من شيزر إلى أرض الله جواب آفاق قصد دمشق. وكان فيها آل طغتكين يحكمون وعاش في منزل يقوم على مدخله أسدان صغيران أخافا أهل الحي. وصار صديق الأسرة الحاكمة وبخاصة الأتابك أنر صاحب الأمر والنهي. وبعثه أنر سفيراً إلى الصليبيين فلم يتردد ثم زار مع أنر نفسه القدس تحت الحكم الصليبي وهزئ من ذلك الفرنجي الذي أتاه يقول: هل تريد أن أريك الله وهو صغير؟ ولكنه آخى الفرنج وزارهم مرات كصديق.

وحين دخل نور الدين دمشق انتقل أسامة من بلاط آل طغتكين إلى بلاط نور الدين يصطاد معه ويلاعبه لعبة البولو ويقضي سمره معه. ثم سافر إلى القاهرة ليكون نجم القصر الفاطمي هناك عشر سنوات وليشترك في مؤامرات الوزراء بعضهم ضد بعض وليستشيروا الخليفة فيما يفعل في تنافس هؤلاء وفي خيانة شاور ولؤم درغام... وانغمس في هذه الحمأة حتى اضطر في النهاية إلى

الهرب وساق كتبه في المراكب إلى الشام فأغرقها البحر فما زال يأسف عليها .. طول حياته .

لكنه احتمل بروح الصبر والتسليم فقده جميع أهله معاً في ليلة واحدة حين كانوا في عرس كلهم فجاء سنة ٥٥٢ زلزال هدم عليهم قلعة شيزر فأضحت قبراً لجميعهم لم يقربه بعد ذلك أحد . كان فارساً . أميراً . مقاتلاً . سفيراً نديماً . سياسياً . صياداً . ذهب كل ذلك . وبقي منه شيء آخر هو أنه صاحب ثلاثة عشر مؤلفاً في الأدب والشعر . ولعل أروعها ذلك الكتاب الذي أملاه في حوالي التسعين من العمر وأودعه ، كالمشرف من عل على الحياة بعض ذكرياته . إنه كتاب الاعتبار . أهو سيرة ذاتية أم مذكرات ؟ أم خواطر عابرة ؟ لست تدري ولكنك تدخل منه في بستان لكل زهرة منه شميم ولون زاه حميم ! ولعلك لا تجد في الأدب العربي كتاباً يماثله ...

من أمتع فصول الكتاب ذلك الفصل الذي يروي فيه أسامة جهل الإفرنج بالطب وممارستهم المضحكة للقانون يقول : ومن عجيب طبهم أن صاحب بلدة المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنقاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه فأرسل إليه طبيباً نصرانياً فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما أسرع ما داويت المرضى قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب فرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيء يداويهم . وقال للفارس : أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين . قال أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لي فأساً قاطعاً وفارساً قوياً . فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله ضربة واحدة اقطعها فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال : هذه

امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف فقال : الشيطان قد دخل في رأسها فأخذ الموسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت لوقتها . فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

ويقول أسامة في (الاعتبار) : والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس إلا الشجاعة ولا عندهم منزلة عالية إلا للفرسان ... وهم أصحاب القضاء والحكم . حضرت مرة محاكمة رجل كانت أمه تحتال على الحجاج المسيحيين وتقتلهم فعملوا له حكم الإفرنج : جاؤوا بحلة عظيمة وملأوها ماء وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في الحلة . فإن كان بريئاً غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء وإن كان مذنباً ما يغوص في الماء ... فحرص الرجل لما رموه في الماء أن يغوص فما قدر فوجب عليه حكمهم لعنهم الله . فكحلوه (أي كحلوا عينيه بمرود من النار) ...

يوم مات هذا الفارس دفنوه في جبل قاسيون المطل على دمشق . ثم ضاع القبر على الناس وبنيت عليه الدور فلعله اليوم تحت منامة عاشقين أو مداساً للناس تحت بعض الدروب !.

زمرد خاتون

في الثلث الأول من القرن الثاني عشر كان اسم زمرد خاتون صفوة الملك ملء السمع والبصر هيبة. موكبها الملكي في دمشق كان يهز الأرض وتتراكض أمامه الخيل تفتح الطريق فهي من السلاجقة الترك المسيطرين وكانت أخت ملك وزوجة ملك وأم ملك مثلثة المجد والنسب الملكي. وحين مات زوجها وتولى ابنها اسماعيل العرش. كانت السيدة الأولى في المملكة وكانت الأيام الأولى لهذا الملك أعراساً أو كالأعراس أخمد الثائرين في حماه وثنى على المتمردين في بعلبك وزحف على بانياس فأخذها قوة وعنوة من الصليبيين وهي التي لا ترام حصانة وقلعة. ولست تدري بعد ذلك ماذا جرى للرجل إذ انقلب شيطاناً رجيماً. أصيب بلوثة في عقله فتناهى في المنكرات وحب الظلم والعدوان على العمال بالمصادرة حتى انقلبت صورته الأولى إلى عكسها وارتاع الناس حين علموا أنه كاتب الأتابك زنكي، والد نور الدين، يطلب منه المجيء لاستلام البلد مقابل قطع رؤوس المتنفذين فيها وإلا فإنه سوف يسلمها للفرنجة!

وتراكض الخائفون سراً إلى أمه زمرد خاتون يشكونه. فأنكرت عليه ما يفعل فما ارعوى ولا عاد. فقررت قتله. وفي القلعة حيث يسكنون أمرت غلمانها بقتله أمام أعينها بأعصاب في منتهى البرود ورمت جثته لغلمانه ونصبت أخاه ملكاً بدلاً منه سنة ١١٣٥. وبرز اسم زمرد خاتون على كل لسان بالشكر وصارت كالوصية على العرش تتدخل في أمور الدولة وفي تعيين القادة. صارت رجل الدولة! وشاع عنها أنها تحفظ القرآن وتنسخ الكتب كما شيدت المدرسة الخاتونية ولكنها نموذج التركية المسيطرة.

وجاء زنكي مسرعاً بناء على الدعوة فوجد أبواب دمشق في وجهه موصدة فنفث عن غضبه بالهجوم على بعلبك وهي من أملاك دمشق وقام فيها بمذبحة زادت في هلع الدمشقيين منه أضعافاً ..

وعرف زنكي الأتابك بأخبار زمرد خاتون بين من عرف وكان يطمع كل الطمع في ملك دمشق فرأى أن خير وسيلة لدخولها هي ... الزواج من هذه السيدة . كانت إذ ذاك فوق الخمسين ولكن للسياسة أحكامها . وزواجه منها قد يكسر العمود الفقري للمقاومة الدمشقية . وبعث يطلب يدها . وترددت المراسلات في ذلك وإذا بالسيدة تقبل ويذهب وفد دمشقي يعقد العقد في حمص حيث كان زنكي وقد سلموه هذه المدينة عربون وفاء .

كان زنكي في الواقع يريد تزوج دمشق لا هذه الكهلة . ولكن القواد ومقدمي الجند وكبار البلد كانوا يرغبون في التخلص من هذه القبضة القوية فوق رؤوسهم . وهكذا ما إن اجتاز موكب العروس باب توما في دمشق خارجاً إلى حمص حتى أغلقت الأبواب وراءه . وبدلت زمرد خاتون بالمملكة الملك العريس ! وفوجئ زنكي بأن المرأة التي تصورها مفتاح دمشق كانت المزلاج والمغاليق . وكانت في رأيه صفقة خاسرة عملية الزواج .

واحتفظ زنكي بالعروس فترة في حمص لعل دمشق تتبعها ولكن دمشق بقيت على موقفها وفي مكانها لا تتزحزح ، ولم يجد زنكي ما يفعل بالعروس سوى أن يلحقها بحلب . وبقيت زمرد خاتون فترة في حلب تنتظر فلما لم يأبه لها زنكي انتقلت إلى الموصل ثم أبعدت المسيرة إلى بغداد . ويبدو أن زنكي نسيها تماماً . كانت قد بدأت تدخل في العتمة المطلقة . بلغها أن ابنها شهاب الدين الذي نصبته ملكاً في دمشق قتل وبعثت إلى زنكي تدعوه للانتقام واحتلال دمشق وتحرضه على القواد فيها وعلى عقابهم . ولكن زنكي كان يسمع الكلام بأذن ويرميه من الأخرى . لو كان بإمكانه الظفر بدمشق لأخذها دون أن يتزوج ! ودون تحريض السيدة الخاتون .

وملت زمرد الإهمال لها فطلبت الطلاق وسرعان ما أجابها زنكي . ولكنها كانت رغم سنها المتقدمة وتجاوزها الستين على نية الزواج ! بلى تزوجت لثالث مرة من الأتابك قصيم الدولة وخرجت إليه من حلب . ويبدو أنه تزوجها لمجرد أن يقال إنه تزوج من أخت الملك دقاق السلجوقي ملك دمشق . فقد عادت لديه إلى الإهمال الذي سبق أن عرفته من قبل .

عند ذلك قررت العودة إلى دمشق تحسب أن لديها شيئاً من الرصيد هناك وأن الدنيا لا تزال هي الدنيا . لكن أحداً لم يهتم بهذه العجوز العائدة ... على ما يبدو . فما مضى غير يسير حتى تركت البلد مهاجرة إلى بغداد ! .. كانت تبحث عن مستقر بعد أن فقدت مستقرها .

وكانت زمرد خاتون قد تجاوزت السبعين حين قررت الحج ومجاورة قبر صاحب الرسالة محمد بن عبد الله . ولعلها نظرت في السؤر القليل الذي بقي لها من المال بعد بيع العبيد والجواري فأرادت استغلاله بهذه الشعيرة الدينية . وحجت ثم جاورت ... ولكنها — فيما يظهر — أخطأت الحساب ! نفذ المال وهي ما تزال حية ، وافتقرت ثم افتقرت . تركتها الحاشية جميعاً وبقيت وحيدة حتى بلغت الثمانين أو حولها ... فاضطرت أن تعمل في غربلة الحبوب للناس ... بالأجرة !.

حين توفيت لم تكن تملك شروى نقير . وما رأت عيناً تدمع عليها . ربما تراءت لها مواكبها في دمشق قبل أن تطبق عينيها فبكت . وحين حملت لتدفن في البقيع قرب المدينة لم يكن في تشييعها سوى بضعة نفر . ما كان بينهم دمشقي واحد ! كانت قد دخلت في عتمة التاريخ منذ خرج موكب عرسها أول مرة من أسوار دمشق ..

وغمر التاريخ اسم زمرد خاتون في من غمر !.

أبـو عـمـر

إنه ليس بصديقك الذي فارقته أمس ولا بقريبك الذي تشتاق حديثه ولقياه ولكنه شيخ عادي من الشعب . تقي . خدوم ، عاش في قلب الحروب الصليبية قبل ثمانمائة سنة ولكنه على تواضعه ترك بصماته واضحة إلى اليوم في التاريخ . العمل الطيب لا يموت . وهذا الرجل البسيط كان من رجال المقاومة للصليبيين ولكن على طريقته . المقاومة بواسطة العلم !

هو في الأصل فلاح من قرية جماعيـل في فلسطين قرب مشارف نابلس . وعى أبوه أحمد بن قدامة على الدنيا والفرنج يحكمون بلاده منذ حوالي عشرين سنة وشدا الأب شيئاً من العلم الديني وأقبل يبشر به بين المزارعين في القرية . صلاة الجمعة كانت مناسبة يجتمع إليه فيها من القرى المجاورة أعداد متزايدة منهم كانوا يتسابقون لسماع خطبة والد أبي عمر لأن فيها حكاً لجراحهم وحديثاً عن مقاومة الكفار . وتنبه الفرنجة إلى هذه البؤرة من المقاومة فحاولوا تطويقها . منعوه الخطبة . ضيقوا عليه . لم يستطيعوا طرده من البلاد فقد كانوا بحاجة إلى الفلاحين لتأمين الإنتاج .. بل كانوا يطاردون الهاربين حتى الحدود ويعيدونهم إلى أراضيهم مرغمين ... وإلا فمن ذا الذي يزرع الأراضي وينتج ؟

وضاق والد أبي عمر ذرعاً بالحكم الفرنجي فقرر الهرب . وهرب بالفعل ومعه ابنه أبو عمر محمد وطاردته خيول الفرنج حتى ضفاف نهر الأردن ولكنه كان قد اجتاز النهر مع نفر من عائلته إلى دمشق ... كان حنبلي المذهب وكانت الشام شافعية فلم يجد في أوقافها مكان له . فنزل في بقعة سبخة بجانبها

قبر أحد الصالحين واسمه أبو صالح ومالبث أن لحق به أعداد من الهاربين اللاجئين ؛ من أقربائه من القرية . وبعد وفاته سنة ٥٥٨ كان على أبي عمر أن يقوم بأودهم بما يدره عليه التعليم . لكن الأمراض فتكت بهم فأقبل يبحث عن مكان لهم في قرى الغوطة عبثاً . وأخيراً وجد أن في سفح جبل قاسيون في شمال دمشق فراغاً فتخير موضعاً هناك بنى فيه بعض البيوت ومسجداً يقيم فيه الصلوات ... كان العلم والفقه الذي ينشره أبو عمر جديداً على الناس . المذهب الحنبلي لم يكن من قبل معروفاً منتشراً فتكاثر المستمعون والطلاب شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة .

كان ذلك حوالي سنة ١١٦٠ — ١١٧٠ أيام نور الدين بن زنكي الذي سمع بالرجل وجاءه بنفسه زائراً فوجده قد بنى مدرسة متواضعة قرب البيوت التي كان بناها فتبرع له ببعض الخشب الذي طلب ... على أن الطلاب والعلماء الذين كانوا يقصدون هذا المركز العلمي كانوا يستبعدون المشوار بين دمشق وهذا المركز فأقبلوا يبنون بعض البيوت هنا وهناك أيضاً . وحين تكاثرت البيوت تكاثرت بجانبها الأسواق والباعة . ولم يكن قد مضى نصف قرن حتى صارت هذه النواة التي أقامها أبو عمر لأولاده بلداً صغيراً يتميز عن دمشق بأمرين :

الأول أنه مدينة علم فقط وما يتبعه من حاجاته .

الثاني أنه يدرّس المذهب الحنبلي ودمشق ومشايخها ودروسها على المذهب الشافعي .

واشتهرت هذه المدينة الصغيرة التي عرفت بالصالحية . اشتهرت من بغداد ونيسابور إلى حران وإلى مصر والحرمين الشريفين بهاتين الميزتين فهرع إليها شيوخ الحنابلة والطلاب على السواء وكان ممن أتاها وسكنها ابن تيمية . القطب الحنبلي المشهور . كان دور مدرسة أبي عمر إنشاء جيل من العلماء أصلب عوداً وأكثر اندفاعاً في حماية الدين والدفاع عنه . كان يريد أن يتحدى

الهجمة الصليبية بدفاع محصن يوازيها ولكنه يقوم على العلم.. حسب رأيه ومفهومه للدين.

كان رجلاً فرداً ونجح وحين مر ابن بطوطة بالمدينة الجديدة بعد قرن ونصف القرن امتدحها وامتدح جمال أسواقها ومدارسها وفي تلك الفترة بعد وفاة أبي عمر سنة ٦٠٧ بقرن ونصف القرن كانت أسرة آل قدامة قد نبغ منها عشرون من كبار العلماء يقصدهم الناس من أقصى الأرض الإسلامية للدراسة والعلم وخلال القرون الثلاثة التالية كان قد بلغ رتبة القاضي وقاضي القضاة منهم ما يزيد على ستين عالماً وشيخاً. بلغت كتبهم المؤلفة المئات. لكن الجماعات الصليبية كانت قد أخرجت من الشام وانتهت حروبها وكان هؤلاء العلماء قد أصبحوا جزءاً من الحركة الثقافية والإدارية والدينية في الشام ومصر أيام العهد المماليكي وشكلوا منه جانباً من طبقة الموظفين الدينيين.

وإذا كانت مدرسة أبي عمر ما تزال قائمة إلى اليوم في مكانها وإن تكن مهدمة كما لا يزال بيته في جماعيل بفلسطين قائماً مهدماً بدوره فقد كان لهذه المدرسة مأثرة هامة ما تزال إلى اليوم تفخر بها دمشق، طلاب هذه المدرسة وعلماؤها نقلوا بخطوطهم الآلاف من الكتب التراثية وأودعوها في خزائنها أوقافاً لكل دارس وكان الدارسون فيها تقدم لهم الكفاية من الطعام والإقامة والمصروف من الأوقاف الكثيرة الدارة التي انهالت خلال قرون على المدرسة وهكذا تجمع فيها ثروة هائلة من المخطوطات بقيت في خزائنها زمناً طويلاً حتى أتيح لها، في أواخر القرن الماضي شيخ بعيد النظر هو الشيخ طاهر الجزائري جمعها كلها إلى باقي المكتبات في الجامع الأموي وفي غيره وكون منها نواة المكتبة الظاهرية من المخطوطات التي تبلغ اليوم ١٢ ألف مخطوط وتعتبر أحد كنوز دمشق.

الصالحية المدينة الصغيرة أضحت اليوم حياً من أحياء دمشق. وأبو عمر وأسرته كلها أضحت اليوم ملكاً للتراث الثقافي العربي. ولكن مَنْ من الناس يعرف أبا عمر أو من يعرف على الأقل أين قبره؟... لا أحد!.

الاسبتارية

هذه المنظمة العسكرية الصليبية، جذورها ترجع إلى ما قبل الغزو الصليبي للمشرق. بعض تجار بلدة أمالفي الإيطالية أقاموا سنة ١٠٧٠ جمعية خيرية في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في القدس للعناية بفقراء الحجاج الغربيين القادمين من أوروبا لزيارة القبر المقدس. سموا الجمعية باسم (هوسبتالية) أي المضيفين وتحول الاسم بالتحريف العربي إلى اسبتارية!

بعد قليل دخل هؤلاء تحت النظام الديري البنديكتي (على اسم القديس بنيديكت) وصاروا تابعين للبابا مباشرة. حين وصل الغزو الصليبي إلى القدس قدموا للغزاة خدمات هامة أليسوا أدرى بالبلاد وأهلها ومعاقلها؟

لم يمض على الوجود الصليبي في الشام عشرون سنة حتى أضحت الاسبتارية تقدم الخدمات للأمراء وللحكومات. وبدل المعونات للحجاج صارت تقدم المعونات العسكرية. تحولت في عملها وفي أهدافها وصار لها كيانها الثابت ونظامها الخاص وأغدقت عليها التبرعات من كل جانب فإذا هي تمتلك بعض المواقع والأراضي أيضاً وإذا هي تشغل مكاناً حربياً خاصاً في النشاط الصليبي ويظهر أن ذلك بدأ في إسبانيا ثم انتقل إلى المشرق.

وشيئاً فشيئاً صارت الاسبتارية قوة صليبية ضارية يستنجد بها الأمراء في مشاريعهم الحربية ويدفعون لهم ثمن الخدمات التي تقدمها وكثير من كنائس بيت المقدس خصصت عشر دخلها لمساعدة الاسبتارية على النهوض بأهدافها وخدماتها فما حلت سنة ١١٣٧ أي بعد أربعين سنة من الاحتلال الصليبي

حتى تملكوا لأول مرة بيت جبرين بفلسطين ليقوموا بحماية الحدود ضد مصر الفاطمية. صارت الاسبتارية أحد أركان القوة الغازية في محاربة المسلمين. صارت منظمة عسكرية.

تحولت الاسبتارية هيئة فرسان بدل هيئة رهبان أو قل هم رهبان فرسان. وقلت عنايتهم بالحجاج وانصرفوا بدل ذلك إلى الدفاع عن ممتلكات الفرنجة بالشام وحماية أماكنهم المقدسة ومحاربة المسلمين. أضحوا هم ــ مع الداوية الفرقة الأخرى ــ حماة الكيانات الصليبية في الشام. وتجمعت لديهم الثروة الطائلة التي اشتروا بها القلاع والحصون وصارت لهم مدن ومعاقل بأكملها يملكونها ويذودون عنها ويعقدون معاهدات الهدنة أحراراً فيها بل لهم أيضاً حق منح اللجوء السياسي!

ولم تتوال الأموال على الاسبتارية فقط ولكن توالى عليها التطوع في صفوفها. الكثير من القادمين للحج أو للمغامرة أو للتجارة أيضاً كانوا يجدون في هذا التطوع الحل لأهدافهم. إنهم في هذه المنظمة يجدون خدمة الدين وخدمة السلاح وخدمة الفقراء في وقت معاً. والطرق الثلاثة تؤدي في رأيهم إلى الجنة! ومعظم هؤلاء المتطوعين كانوا من أصل شعبي أو مغامرين يجربون حظوظهم في المشرق مع المكافأة المرجوة من عند الله.

وفي الحروب كان الاسبتارية (مع الداوية) أشرس المقاتلين وأكثرهم حماسة وحقداً. ومنذ فترة مبكرة تنبه لذلك أمير طرابلس ريمند الثالث فأعطاهم قلعة الحصن المشرفة على الممر الواصل بين حمص وطرابلس مع كل حقوقه على الأراضي الممتدة شرقاً حتى بلدة رفنية. ثقة بالغة ولكنهم نالوها بما عرفوا به من الشراسة والاندفاع المحموم ثم أقاموا خط دفاع ثان وراء ذلك. ولا يكاد تاريخ الصليبيات يسجل معركة مع الجانب الإسلامي إلا وجدنا للاسبتارية والدواية أو لأحدهما مساهمته فيها. صاروا هم روح الحروب الصليبية والصليبيون إطارها الشكلي.

في أيام صلاح الدين كان الاسبتارية يملكون ما يشبه الإمارة المستقلة بين طرابلس وأنطاكية فيها قلعة الحصن وجبلة وقلعة مرقب . ولها إطلالة من قمم الجبال هناك على البحر في الغرب وعلى السهول والتلال الموصلة إلى حوض نهر العاصي من الشرق . بذلك أضحى اسبتارية الشرق أكثر المنظمات العسكرية شبهاً بمثيلتها اسبتارية إسبانيا والأندلس .

خلال هذه الفترة ، كانت المعونات والهبات التي تنهال على الاسبتارية تتنوع لا من الأمراء الصليبيين فحسب ولكن من أوروبا . ففيها الصدقات والتبرعات وفيها الرغبة في التعويض عن عدم القتال وفيها مال الوصايا وفيها غنائم المعارك وفيها أموال الأفراد الذين يدخلون رهباناً في المنظمة . وهكذا كان بإمكان الاسبتارية أن يشتروا بالأقساط بعض القلاع أو يستأجروها . استأجروا مرقب مثلاً بمبلغ ٢٢٠٠ دينار سنوياً ، وأعطوا أمير طرابلس وأولاده عشرة آلاف دينار مقابل تملك قلعة الحصن يضاف إلى كل هذا أنهم معفون بوصفهم من رجال الدين من جميع الضرائب على أعمالهم التجارية ... بلى ! فقد كانوا أيضاً يعملون في التجارة ...

ولم تكن أملاك الاسبتارية من الأرضين تستغل من قبلهم ولكن المنظمة كانت أشبه بالإقطاعي الذي يملك الأرض وما عليها من عبيد الأرض الفلاحين معاً . فلهم الإنتاج وللفلاحين ما يقيم أودهم ليستمروا في العمل . وكانت المنظمة الاسبتارية تؤجر الأرض أحياناً للأفراد أو للجماعات الدينية الصغيرة . وهكذا تحولوا في القرن الثالث عشر إلى مصرفيين أيضاً ، يقرضون بالربا كما فعلوا مع ليو الأول أمير صقلية ...

الغريب أنهم رغم امتلاكهم كل مقومات الدولة الصليبية من أرض وقلاع ورئاسة وجيش منظم ظلوا أتباعاً للإمارات وحين طرد صلاح الدين مملكة القدس منها فلجأت إلى قبرص ذهب قسم من الاسبتارية معها وكانت لهم

أدوارهم ويقولون إن الاسبتارية كانوا أحد الأسباب في هزيمة حطين بعنادها وقصر نظرها. ترى لولا وجود هذه المنظمات الدينية العسكرية هل كانت تطول الحروب الصليبية مائتي سنة؟

أشك في ذلك!.

الـداويـة

كانت وجود الفرقة الاسماعيلية في الإسلام ظاهرة عجباً إذ ليس في الإسلام كنيسة أو منظمات دينية لها قوانينها وتراتيبها. أما في المسيحية فإن وجود الكنيسة المنظمة على الأساس الروماني البابوي قد سمح بوجود مؤسسات ذات أعمال دينية تحددها لنفسها وتعمل عليها. أديرة ورهبان وقسس وتنظيمات فرانسيسكانية وبنيديكتيه وإخوة مريميون وغيرها... الظاهرة العجب أن بعض هذه المؤسسات اتخذت مبكرة الطابع العسكري. تجاوزت وظيفتها الدينية لتقوم كالجيوش بالأعمال الحربية. وإذا بدأت الحروب الصليبية أول ما بدأت في الأندلس فإن هذه الميليشيات الدينية العسكرية إنما بدأت معها هناك.. حولت الدين المسيحي المسالم والذي يقول فيه السيد المسيح: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر إلى عقيدة محاربة عنيفة الحقد على كل عقيدة أخرى.. وكانت هذه المنظمات الدينية أكثر عدداً في إسبانيا منها في المشرق. فهناك أقامت هيئة الرهبان السسترشيان لنفسها مركزاً سنة ١١٤٩ وقوة حربية للدفاع عن مصالحها من جهة ولحرب المسلمين من جهة أخرى وتكاثرت بعدها هذه المنظمات العسكرية فكان هناك هيئة القديس جوليان التي أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢ والتي اتخذت بعد ذلك سنة ١٢١٨ اسم منظمة القنطرة حين استولى الإسبان على هذه المدينة فجعلتها المنظمة مقراً لها وكانت ثم منظمة أخرى هي منظمة سنتياغو أشهر منظمة دينية حربية في إسبانيا بالإضافة إلى ظهور فروع للداوية والاسبتارية هناك.

هذه المنظمات كانت هي منبع القسس والرهبان الذين تسلموا دواوين

التحقيق ومحاكم التفتيش للمسلمين فيما بعد. والبابوية هي التي كانت تشجع وتدعم وتغذي كل ذلك ...

لذلك لم يكن غريباً أن تظهر في المشرق ثلاث منظمات دينية ــ عسكرية متقاربة الأهداف ونتكلم اليوم عن إحداهما الداوية كما تكلمنا عن الثانية الشقيقة لها وهي الاسبتارية. والداوية، هذا الاسم يبدو أنه تحريف لكلمة الفداوية. أما الاسم الحقيقي للجماعة فهو فرسان الهيكل والهيكل هو هيكل سليمان بجوار المسجد الأقصى الذي اتخذوه مقراً لهم ويدعون أيضاً بفرسان المسيح الفقراء. هذه المنظمة كانت منذ تأسست عسكرية على عكس الاسبتارية والتيوتون. أسسها فارس بورغندي يسمى هوغ دوباينز مع فارس آخر اسمه غودفري دوسانت أومير واتخذوا هدفاً لهما حماية الحجاج بالقوة على الطرق في أرض الميعاد فلسطين كان ذلك سنة ١١١٩ بعد عشرين سنة من احتلال القدس. والتحق بهم بسرعة ستة فرسان آخرين. وأخذوا على أنفسهم عهداً بالعيش في فقر وطهارة وطاعة على مذهب القديس بينديكت. وفي سنة ١١٢٧ ظهر الفارس هوغ في أوروبا يدعو لفكرته. ولقيت الفكرة النجاح الواسع والمساندة المالية الممتازة كما انضم إليها أعداد حسنة من الفرسان فقد كان الكثير جداً منهم عاطلين عن العمل.

تبنت البابوية هذه المنظمة العسكرية منذ لحظاتها الأولى. ومنحتها حق إقامة كنائسها الخاصة والإشراف على الكنائس الأخرى ومنحتها الحكومات الأوروبية الأراضي في أوروبا فكان مقرها العام الأوروبي قرب باريس.. ولها أملاك في نورمنديا وغيرها. لكن... لم يكن ممكناً تفادي اصطدامها بالمنظمة أختها المماثلة: الاسبتارية ومنذ اللحظات الأولى. كان تقارب الأهداف الشديد بينهما يجر إلى المنافسة الشديدة وإلى التنازع وهكذا انفقت المنظمتان الصليبيتان الكثير من جهودهما في الزحام على امتلاك الأراضي وعلى الفوز بالمعونات والهبات والرجال.

وعلى الرغم من البداية المتواضعة التي بدأها الفرسان المؤسسون، ومن ملابسهم المهلهلة وتذرعهم بظواهر الفقر فإن الداوية، كالاسبتارية، ما لبثت أن أضحت قبل مرور نصف قرن ذات مركز مالي ضخم. وصار فرسانها جيشاً منظماً يستدعى للملمات. وتحولت إلى مؤسسة سياسية رأسمالية لها مصالحها وطرائقها وحلفاؤها المدافعون عنها ضد المنظمة الأخرى كما كان لها قلاعها والحصون والتجارات والمكاسب. ولما لم يكن لأحد من سلطة من الصليبيين على الداوية سوى البابا البعيد فقد كانت لسيد المنظمة المدعو بالسيد الأعظم السلطات الواسعة التي لا تضاهيها سلطة الأمراء الصليبيين. سواء حين كانوا في القدس مع مملكة القدس أم حين انتقلوا منها يوم انتقلت إلى قبرص بعد معركة حطين ...

وقد أنشأ فرسان الهيكل بعض القلاع ولعل أهمها قلعة الحجاج قرب عكا وهي القلعة التي انطلقت منها الحملة الصليبية الخامسة ضد مصر. تعاونوا في بنائها مع والتر آفينس والمنظمة العسكرية التيوتونية. وكان فرسان الهيكل أبطال حصار دمياط في تلك الحملة الكارثة على الصليبيين ... وحين قاد فريدريك الثاني حملته السادسة ضد فلسطين وقف فرسان الهيكل ضده ومنعوه من النزول في عكا. ألم يكن فريدريك محروماً من قبل البابا؟ .. ويسكنه الشيطان؟. إذن فلن يسمح له بالحرب الصليبية!

تفاصيل أعمال هذه المنظمة وشقيقتها الاسبتارية طويلة، مملة. وتاريخها في الواقع هو تاريخ الحروب الصليبية كلها فماذا نذكر منها وماذا ندع؟

يكفي أن هؤلاء الذين كانوا في مطلع الأمر خدام الفقراء والحجاج أضحوا في النهاية قوى غنية متعطشة للمجد والفخامة والثروة بقدر ما هي أنانية ومتحاسدة ...

وقد طردوا من عكا سنة ١٢٩١ مع آخر من طرد عن أرض الشام.

قوتهم التي كانت مؤمنة بالمبادئ أول الأمر صارت في النهاية مؤمنة بالدينار والذهب . وانهاروا انهيار نمر من الورق !
وبأيدي الفرنج أنفسهم !.

اعتماد الرميكية

نحن الآن في الأندلس . وفي أواخر عهد ملوك الطوائف منها حوالي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م . في تلك الفترة التي بدأت فيها عروش أولئك الملوك تهتز تحتهم في حين كانت هجمات الإسبان الصليبيين تشتد وتشتد . كان بعض تلك الممالك يهادن وبعضها يداهن وبعض يدفع الجزية عن يد وهم صاغرون . مملكة إشبيلية في الجنوب كانت أكبر هذه الممالك ولكنها أيضاً أكثرها رعباً ... كان أهلها قد نفضوا اليد من جدوى أميرهم المعتمد . لو كان أبوه المعتضد هناك لأمنوا بعض الأمن ولكن أين الأب ؟ ابنه المعتمد كان قد اشتهر جداً ولكن .. بالشعر لا بالحرب بمجالس أنسه لا بمجالدته على أطراف الحدود . الناس كانوا يرمقون قصره بنوع من الحقد والكره . أهل التقى والتدين بخاصة كانوا يتصورون أن الشيطان يسكن مع المعتمد هناك . والشيطان كان جارية من الجواري الناعمات اللواتي لم يكن يخلو منهن قصر . وكن أحياناً زينَة من زيناته .

كانوا يدعونها بالرميكية فالنخاس صاحبها الأول كان اسمه الرميك . وقد لقيها المعتمد مصادفة . كان في مجلس أنس في بعض بساتينه وفي جمع من أصحابه والجواري وأمامهم النهر يجري في هدوء . فخطر في باله شطر من بيت شعر قال : أجيزوا :

نسج الريح على الماء زرد !

وعجز الحاضرون عن الإجازة السريعة إلا صوت جارية قالت :

يا له درعاً منيعاً لو جمد

كانت هي اعتماد الرميكية. وأعجب المعتمد ببديهتها وشعرها إعجابه بجمالها وقوامها المياس فاشتراها من صاحبها ثم ما لبث أن أعتقها وتزوجها بعد أن ملكت عليه عقله وقلبه. صارت همه ودنياه يرى الدنيا من بين عينيها والشفتين. ذات مرة اشتهت الرميكية أن ترى الثلج ولم يكن في إشبيلية وما حولها إلا سفوح واطئة لا تعرف الثلج فزرع لها المعتمد شجر اللوز هضبة واسعة حتى إذا جاء الربيع وأزهرت الأشجار كالجنة البيضاء دعاها لترى تساقط الزهر على الأرض بساطاً كالثلج أو هو أروع وأبهى وذات مرة رأت الرميكية بعض الفعلة يجبلون الطين بأرجلهم لبعض البناء فاشتهت الرميكية على مليكها أن تفعل ذلك. فوعدها. وبعث فأتى بكميات من الكافور والطيب والمسك والعنبر وأنواع العطور فذر لها ذلك في باحة القصر وأمر بعجن كل ذلك بماء الورد حتى صارت الجبلة كالطين ثم دعا اعتماداً وجواريها أن يخضن في هذا الطين الملكي الذي لم يعجن مثله في الأحلام!.. نزوات بعد نزوات كانت هذه الرميكية! والمعتمد مسحور بعينيها.

وضاق أهل التدين بضعف المملكة وبالعدوان الصليبي الذي لا ينقطع عنها فأقبلوا يشيرون على المعتمد أن يستنجد بالقوى الإسلامية للدفاع. أو يدفع الإسبان بما يستطيع. فقال: بل المسلمون أولى. ولأن أكون راعي جمال في الصحراء خير عندي من أن أكون راعي خنازير لدى الأعداء.

في بال الجميع كانت القوة الإسلامية هي تلك التي ظهرت من الصحراء جنوبي المغرب كانت قوة إسلامية ضخمة قامت خارج الأندلس في المغرب عبر البحر وأقامت دولة ذات جيش تهتز له الأرض. كانوا يدعونها بالدولة المرابطية لأن رجالها دعوا أنفسهم بالمرابطين أي حراس الحدود في سبيل الله وبعث المعتمد يستنجد بهؤلاء الذين لم يكن يخفى عليهم ضعف الممالك الأندلسية. ونزل جيشهم بالفعل في الأندلس وأنزل بالإسبان هزيمة منكرة سحقتهم سحقاً!

لكن ما إن عاد الجيش المرابطي إلى المغرب حتى عاد الإسبان الصليبيون إلى ما كانوا عليه وأشد كفراناً وعتواً وعاد المعتمد يطلب نجدة أخرى وجاءت النجدة الثانية ولكنها في هذه المرة جعلت همها الاستيلاء على ممالك الطوائف نفسها. كانت هذه الممالك صيداً سهلاً. وكان أول صيدها المعتَمد نفسه. عدا المرابطون على مملكته في إشبيلية وأسروه بمن في قصره من الأهل والحاشية وبعثوا بهم إلى العدوة الأخرى. عبروا بهم مضيق جبل طارق إلى المغرب واختار السلطان بنفسه للمعتمد أن يسجن في سجن أغمات فسجن في الأغلال. وفي خاطره تلك الجموع التي كانت تودعه بعيون ملآى بالدموع والجموع الأخرى التي كانت على الشماتة والكره... ما الذي جرى بالرميكية؟ لقد أسرت في جملة من أسر وسيقت إلى المغرب مع من سيق ولم تسجن ولكنها بقيت مع عائلة المعتمد. وافتقرت معها حتى كانت لا تجد الكفاف. فيما كان سيدها السجين يبكي نفسه أمر البكاء... شعراً لا أرق ولا أحزن، أيام نعيمه الأولى كانت تزور خاطره كالكوابيس فيسلي نفسه بالشعر رقيقاً تارة وباكياً أخرى ويقول:

تبدلت من بعد ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود

وزاد في مأساته أن إحدى بناته بيعت مع الرقيق فاشتراها بعض التجار لابنه! واشتد الفقر بأهله حتى كانت الرميكية نفسها مع بناتها يكسبن العيش بالغزل بأيديهن للناس. وحاول أحد أبنائه الثورة في إشبيلية فلقي أشنع ما يلقى ثائر من العقاب! وقبل أن يموت المعتمد سنة ٤٨٤/١٠٩١ زارته زوجته الرميكية. ويبدو أنها اختصمت معه في بعض الأمر وكان بين ما قالت له.

ـــ خذلك الله. والله ما لقيت منك يوماً طيباً أبداً..

فقال المعتمد: حتى ولا يوم الطين؟.

وغرقت الرميكية بين المغمورين الكثيرين وغرق المعتمد.. وسبحان ربك مالك الملك يؤتي الملك من يشاء فيعز من يشاء ويذل من يشاء! بيده الخير إنه على كل شيء قدير!.

أرناط عقدة الأفاعي

هي عقدة يقال إن بعض أفاعي الفيبر حين يخنق بعضها بعضها على بعض تهاجم ويلتف بعضها على بعض في عقدة متصلة تزداد حتى لا يمكن فكاكها وتظل هذه العقدة تمسك بالأفعوين المختصمتين حتى الموت. كاتب فرنسي استخدم (عقدة الأفاعي) اسماً لرواية فرنسية مشهورة كتبها صاحبها وهو يريد أن يقول إن بعض القلوب تبلغ من الحقد الأسود مبلغ الأفاعي الحاقدة فما تزال تختصم مع عدوها حتى الموت...

هذه العقدة بالذات حملها فارس فرنسي في الحروب الصليبية فما زالت ترهقه تدميراً أيضاً حتى الموت. هذا الفارس اسمه أرناط. لقد تكونون سمعتم هذا الاسم بمناسبة حطين وصلاح الدين ثم غابت مع غياب الرجل فما لها من باق...

هذا الفارس كان من بين الفرسان الكثيرين المغمورين في فرنسا واسمه الأصلي رونيه دوشاتيون لم يكن له من عمل أو إقطاع. لكنه حسب أنه بجثته الضخمة وسيفه الثقيل وبراعته في القتال لا بد بالغ أمراً في المشرق فحاصلٌ على ما يريد من المجد والأرض. كانت أطماعه أشبه بالأحلام ولكنها على أي حال كانت أوسع من أطماع الكثير من الصليبيين.

جاء أرناط إلى المشرق في ذيول الملك لويس السابع مع الحملة الصليبية الخامسة. وحين أخفقت هذه الحملة تخلف في فلسطين يجرب حظه... وبدأت قصته بقصة حب فقد كانت أميرة أنطاكية الشابة كونستانس قد

ترملت ورفضت الزواج من الكثيرين . ولكنها التقت بأرناط وفتنت به وتجاوز الحبيبان العديد من المصاعب ... وتم الزواج سنة ١١٥٣ وحصلت أنطاكية بذلك على أمير محارب قوي من أشرس الصليبيين .

ولست تدري هل ندمت كونستانس الأميرة على هذا الزواج بعد أن تكشف أرناط عن مغامر خطير ملء أعماله التهور والطيش والجهل بالسياسة إضافة إلى الغدر أم ازدادت حباً له ؟ ولكن الثابت أنه بهذه الصفة خلق الكثير من المصاعب للصليبيين في الشام ! علم يوماً أن بطريق أنطاكية كان يعارض زواجه فتناوله بالعذاب والضرب ونصبه عريان كامل العري في الشمس المحرقة حتى توسط ملك القدس فقضى البطريق بقية حياته هناك . واتجه أرناط إلى شمال الأمارة وكان ثم مملكة أرمنية صغيرة فحاربها بالاتفاق مع البيزنطيين ثم اتفق معها لمحاربة البيزنطيين أنفسهم والتفت غرباً إلى جزيرة قبرص فأغار عليها بمراكب عديدة عادت محملة بالغنائم بعد أن قتل وضرب وجدع أنوف رجال الكنيسة وقطع آذانهم وألسنتهم ! ..

وانتهت هذه المرحلة من حياة أرناط بأن وقع أسيراً ... بلى ! جره طمعه ورغبته في النهب إلى الإغارة على مراعي الجزيرة . وفيما كان عائداً بأسلابه من الأغنام والمواشي والخيل لقيه مجد الدين أبو بكر ابن الداية ، قائد نور الدين في حلب (نوفمبر ١١٦٠) فأوقعه في الشباك ليبقى في ظلمة السجن أسيراً ست عشرة سنة (١١٦٠ — ١١٧٦) ... لم يأسف على غيابه أحد حتى ولا زوجته ! وغاب الغياب الكامل عن المسرح السياسي !

المرحلة الثانية من حياة أرناط السياسية العسكرية كانت أخطر وذلك بعد أن أطلق سراحه حاكم حلب في عملية شكر للصليبيين الذين أعانوه ضد صلاح الدين ... وذهب أرناط إلى مملكة بيت المقدس وهناك تزوج من وريثة صاحب الأردن . ولم تكن بالشابة ولا بالجميلة وقد سبق أن تزوجت هذه الأرمل قبله مرتين ولكنه كان طامعاً في ما تملك فقد ورثت عن أبيها حصن الكرك

والشوبك ... ووجد أرناط مرة أخرى ضالته في الملك . ترى هل غيرت سنوات السجن الطويلة من أخلاق الرجل ؟ أبداً لقد عاد أشد شراسة وحقداً .. رغم اختلاف الظروف بين الأمس واليوم . وزاد في هَـوَسه أنه رأى نفسه في الكرك مسيطراً على طريق التجارة والحج بين الشام ومصر والحجاز . فأقبل يهاجم القوافل وينهب الحجاج ويقطع الطريق على التجار ... ولم يدرك أرناط أن ملك القدس نفسه وهو ليس أكثر من تابع من توابعه قد عقد الهدنة مع صلاح الدين ... فخرج أرناط سنة ١١٨١ على رأس قوة يوغل في شمال الحجاز حتى بلدة تيماء، وهي دهليز المدينة المنورة ونصف الطريق إليها . فنهب ما شاء وأسر . وخربت الغارة علاقة السلم مع الصليبيين لكنها أفزعت أيضاً العالم الإسلامي كله . ماذا يريد هذا المهووس ؟ الوصول إلى قبر صاحب الرسالة ؟ وكان هذا هو الواقع ؟ كان حلمه أن يبلغ المدينة فلما وجد الطريق البرية شاقة بين الجبال والقفر عاد ليدبر بلوغها في البحر ...

استولى أولاً على العقبة قاطعاً الطريق بين مصر والشام والحجاز ثم انتقل إلى الجزر في خليج العقبة يحتلها وبنى عدة سفن في البحر الأبيض المتوسط وحملها مفككة على الجمال ليركبها في هذا الخليج . وثار الرعب في البحر الأحمر كله . كانت هذه أول مرة تنفذ فيها سفن فرنجية صليبية إلى هذا البحر العربي وتغير على الموانئ المصرية وتتسلل جنوباً . وتنهب عدة سفن قادمة من جدة واليمن وعدن والهند .

لكن... كان ذلك تمهيداً لكي ينقل صليبيو أرناط نشاطهم إلى الضفة الشرقية للبحر . إلى شاطئ الحجاز حيث يقوم الحَـرَمان وتستقر المقدسات الإسلامية الكبرى . وعظم البلاء على الناس حين صار أصحاب أرناط على مسيرة يوم واحد من المدينة ... وتبين لهم أن هدف هؤلاء الفرنجة مزدوج : ضرب العالم الإسلامي في قبلته . والسيطرة على تجارة عدن والبحر الأحمر ...

هذا هو المشروع الأرناطي الذي كان أقصى ما بلغته الأحلام الصليبية ...

وأسرع العادل أخو صلاح الدين فأنزل في البحر الأحمر أسطولاً أحرق أولاً بعض السفن الصليبية في العقبة وأسر من فيها ثم لحق بمراكب الفرنج فأحرقها قرب ينبع وبغت الصليبيون فلاذوا بالجبال فطاردهم المسلمون حتى أسروهم جميعاً (فبراير ١١٨٣) فنحر بعضهم في منى وقتل بعضهم في مصر بعد استعراضهم في شوارع القاهرة والاسكندرية . أما أرناط فقد أقسم صلاح الدين ألا يغفر له . ولم يغفر .

فقد وقع في معركة حطين أسيراً في يده فكان الأسير الوحيد الذي قتله صلاح الدين بيده . وتهتكت عقدة الأفاعي التي كانت تملأ صدره مزقاً !.

التنمللي

جزر الباليار جزر كأنما هربت من الجنة تقوم في قلب حوض البحر المتوسط الغربي كورود الماء بين إسبانيا والجزائر وإيطاليا وفرنسا . بقيت في يد العرب زهاء قرنين ثم هاجمها الإسبان القطلانيون أثناء الحروب الصليبية سنة ١٢٢٩/٦٢٦ . وكان عليها وال حديد العزم شديد القسوة يدعى أبا يحيى التنمللي ... كان قصره في بالما العاصمة كالقلعة المنيعة .

اليوم الأخير من حياة الجزيرة الكبرى من هذه الجزر ، وهي ميورقة يمكن أن نتخيله تخيلاً لو تركنا لصاحب من أصحاب أبي يحيى أن يروي الذي كان عند غزو القطالان للجزيرة وسيقول الرجل :

« كنا لدى أبي يحيى التنمللي في قصره قبل واقعة التسليم . وكان أبو يحيى في أشد القلق لما ورد عليه من أخبار تحرك الأسطول الفرنجي القطالاني . ومسيرة الملك اللعين خايمه الأول قاتله الله للهجوم على الجزيرة. وكان أشد ما يقلقه خيانة أبي جميل زيان بن مدافع في بلنسية وتحوله إلى أداة طيعة للفرنج الكفار . وقد استعد أبو يحيى للغزاة بألفين من الفرسان وعشرين ألفاً من الجند إلا أنه كان يخشى الناس كل الخشية بسبب جبروته وظلمه وقتله خلقاً من أهل البلد حتى هرب بعضهم إلى الجبال فراراً بأنفسهم منه . وقد جمعنا ليرى رأينا في الملمة الداهمة ومدى استعداد الجند والناس لها . ففي المجلس القواد والوجهاء وكبار القوم . وقلت لأبي يحيى :

ــ لقد بعثت صاحب شرطتك أمس فأتاك بأربعة من أعيان البلد

فضربت أعناقهم وكان فيهم ابنا خالي . وأنا قادم الآن من العزاء. إن هذا أمر لا يطاق ونحن كل يوم إلى الموت نساق . وقد عاهدني الناس على الثأر . وهم من الخوف في أهوال ومن أمر العدو في إهمال ...

وقال أبو يحيى : ليس هذا أوان العتب والحساب والأمر أخطر والداهية اليوم أعظم وأريد الرأي ...

فقلت : قديماً قالوا :

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم

ألم تبعث بإحضار خمسين رجلاً من أهل الوجاهة والنعمة ، فهم الآن لديك في ساحة القصر ينتظرون وكلهم من خوف الموت في موت ؟

قال : إنهم أصل الفتنة وأصل البلاء ولا أحارب الأعداء في الخارج وأعدائي في الداخل .

قلت : لم لا تؤخرهم لأعدائك ولا تصطنعهم فيدافعوا عنك وعنا ؟ إنك تحقد على زعيمهم صاحب الشرق (ابن حريق) فهل يبلغ الحقد في الرجال درجة العمى عن بلاء الرجال ؟ اجعلهم يدك على أعدائك وأعداء الله !

ودخل على أبي يحيى وأنا أحاوره بعض غلمانه فوسوس إليه بشيء وسمعته يردد :

ــ سبعون شراعاً في الغرب وأربعون في الجنوب ؟ سبعون وأربعون !

وفهمت أن الغزاة الكاتالان قد وصلوا . وقال أبو يحيى .

ــ توكلنا على الله . قم بنا إلى ساحة القصر .

وخرج وخرجنا معه والعيون معلقه من الرعب بأطراف شفتيه فقال :

ــ أيها الناس . عفا الله عما مضى وسلف . لقد وقع الأمر الذي كنا نحذر وأنتم أعلم بحقد القطلان وشراستهم وطمعهم في موقع هذا البلد وتجارته . وإنهم الآن على سيف البحر فاذهبوا راشدين إلى سلاحكم فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .

وذكر كلاماً كثيراً في الجهاد . وخرج القوم إلى دورهم كأنما قد نشروا من قبورهم وفي قلوبهم ما لا يعلمه إلا الله من الأسى بين هذا الطاغية الباغي وبين ذلك العدو الذي لا يرحم .

وأشهد لقد صدق أبو يحيى القتال حتى وقع قسم من سور البلد عند باب الكحل وحتى تكسر سيفه في يده وأسر فبقي في العذاب الأليم خمسة وأربعين يوماً حتى مات . وأشهد لقد صدق أهل البلد القتال حتى تساقطوا صرعى . وكان منهم فتى الفتيان فتح الله الذي كان يهاجم العدو خارج الأسوار حتى استشهد مع جماعته ورمى الفرنج برأسه إلى المدينة بالمجانيق .

ولكني أدركت أن انهيار الأسوار قد سبقه انهيار النفوس . وكانت السيوف تحارب معاً والقلوب شتى . بل كان منا أناس كابن عباد وابن بارق والبلنسي ظاهروا الفرنج وأعانوهم لسوء رأيهم في أبي يحيى وظلوا على الخصومة له والمعركة في الإبان. فخسرنا وخسروا . ولقد من عليهم القطلان الإسبان بإبقاء مزارعهم ودورهم في أيديهم فهم اليوم في بلهنية من العيش ورغد من النعيم ولكن المذلة ترهقهم وتجعل حياتهم أمر من العلقم وطعامهم الزقوم . وأي عيش يعيشون إن كان لا يجرؤ أحدهم على أن يعلن دينه حتى لأهله ؟ لقد تفرقوا شيعاً وتركوا الاعتصام بحبل الله فتركهم الله . «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» ولهذا كان من المذلة ما كان . نعوذ بالله من الخذلان !

الأميرة المجهولة

المسرح قلعة كالنجم معلقة في السحب . والقلعة فوق أنتريلا البلد القابع في صقلية والزمن في سنة ٦١٥ بعد أن مضى على الحروب الصليبية قرن ونصف القرن . هذه القلعة كانت آخر ما بقي للعرب في جزيرة صقلية من المعاقل بعد أن قاتلوا ستين سنة عن حصونهم حصناً حصناً وشبراً شبراً . وملّ المدافعون عن القلعة مقامهم فيها لولا أن كانت تمسك بهم بقية من حمية الدين . على أن صاحب القلعة محمد بن عباد كان من قبل العزم الحديدي الذي لا يفل ولكن ماذا يفعل وحده وقد اخترمه الشيب ووهنت منه القوى واستسلمت حوله الحصون بعد مائة وثلاثين سنة من القتال ... بعث النورمان يفاوضون وقبل أن يفاوض هؤلاء الصليبيين لينجو بأهله وجماعته ويصل بهم شاطئ الأمان عبر البحر إلى تونس .

كان إمبراطور الجزيرة النورمندي يفاوضه بنفسه . كتب إليه : لم يبق غيرك وأنت محاصر وزادك قليل ورجالك يتناقصون ولا أمل لك في مدد وأنا أبذل لك أن أحملك بأموالك ورجالك وأزوادك وسلاحك إلى الساحل الأفريقي في أمان . فماذا ترى؟ وترددت المراسلات بين الطرفين حتى استوثق محمد بن عباد من الإمبراطور ! وعارضته ابنته كل المعارضة . لن تستسلم ! وحاورها طويلاً فقالت : قد لا يكون لنا أمل . والضيق يأخذ بنا من كل جانب ولكن من ذا الذي يضمن أن يفي الإمبراطور بوعوده؟ وألا يغدر؟ نفسي فداك ! إن شئت ذهبت أنت ومن تريد في المراكب فإن وصلت آمناً سلمت القلعة وإن غدر الإمبراطور بقينا فيها وليفعل الله ما يشاء .

وركب محمد بن عباد ومن معه الأشرعة واقلعت بهم مبتعدة حتى إذا كانوا في عرض البحر أقبل الملاحون على ابن عباد في أعين حمراء تحمل الشر يقولون :

أترانا نسينا أشلاء أصحابنا . هل ننسى ما كنت تفعل بنا على وديان القلعة ؟ هل ننسى ما فعل سيفك بدمائنا التي أجريت منها السواقي ..

وقال محمد بن عباد : ولكن الإمبراطور أعطاني الأمان ..

قالوا : بلى أعطاك الأمان ألا تقتل ولكن لم يعطك الأمان ألا تغرق ! اللجج ليست ضمن الأمان . إنها قبرك !

واجتمعوا عليه فأغرقوه ومن معه وعادوا بذخائره وأمواله وما يملك إلى الإمبراطور ، علمت ابنة محمد بن عباد بفاجعة البحر وكانت تنتظرها فعقدت العزم على الثأر ولكن كيف لها به وهي في قلة من الرجال والذخيرة والمؤن والمال ... والحصار مضروب على قلعتها بكل سبيل والسيوف تطوقها من كل ناحية ... ظلت ثلاث سنوات تقاتل . تغادي الإمبراطور وتراوحه بالغارات بمن بقي لديها من الرجال . وفي سنة ٦١٩/١٢٢٢ حين أعجزها الدفاع أرسلت إلى الإمبراطور رسالة تقول فيها :

ـــ إني امرأة . وقد بليت بمحاربة الرجال ومواراتهم . وقد ضقت ذرعاً بالأولياء منهم والأعداء . وضعفت نفسي ومللت . ومعي من صناديد الأبطال من لا ينقاد لمرادي في الاستسلام فأرحني وأرح نفسك بأن توجه إلى ثلاثمائة من أبطال رجالك لأدخلهم ليلاً إلى الحصن . فإذا ملكوه ودخلت أنا بعد ذلك في طاعتك لم يكن من أحد بعد ذلك شيء تخشاه . ففكر فيما خاطبتك به والله يخير ويختار .

بعثت الرسالة مع رجل من خاصتها . وكان الإمبراطور قد مل طول الحصار وقلة جدواه فرأى في العرض فرجاً وغنيمة . فبادر بالقبول واختار من فرسانه الرجال الرجال ثلاثمائة وسيرهم في ظلمة الليل فإذا بالأبواب التي ذكرتها

الرسالة مفتوحة لهم وقد لقيتهم بنفسها وبعض حاشيتها ففرقتهم على المدافعين لاستلام المراكز . . .

حين تنفس الصبح خرج الإمبراطور بحاشيته ليرى خفق أعلامه على أسوار الحصن وفوجئ بأنه وجد بدلاً عنها رؤوس أصحابه معلقة على الأسوار وأعلام المسلمين منشورة وطبولهم تملأ الأجواء! وسقط في يده ومكث ساعة لا يحير . الفجيعة كانت أقسى من أن يحتملها ولكنه قرر أن يأخذ المكر بالمكر . . . كتب إليها :

ــ لست أبالي بمن مات من أهل ملتي وقد ظهر لي أنه ما من امرأة في الدنيا تصلح أن يكون لي ولد منها غيرك . فتعالي حتى نتم ذلك وتكون إمبراطوريتي لي ولك معاً فأنت إن بقيت على ما أنت عليه وحصلت في يدي جندي قطعوك عضواً عضواً فاختاري لنفسك ما ترين فيه المصلحة .

وجاءه الجواب :

ــ وصلني الكتاب وعرفت حقه وباطله . وقد أبلغني بعض عيوني الذين ما زلت أبثهم عليك أنك قلت : هذا عجب . امرأة تمكر بثلاثمائة رجل وليس هذا بعجب إنه ثأر أبي . وفي قرآننا الكريم ﴿إن كيدهن عظيم﴾ . ولكن العجب منك أنا في قلعة معزولة وأنت في واسع من الأرض وملك وأموال وجند وقد قدرت عليك . . . فايأس من أن أحصل لك في يد . . وأنا مقاتلتك حتى الموت . . .

وييئس الإمبراطور بالفعل ولم يجد لها إلا مطاولة القتال فلما يئست من النصر جمعت قوادها في حفلة من احتفالات الموت وانتحرت ! . .

هذه الأميرة لم يحفظ لها التاريخ اسماً . إنها فقط عنده بنت محمد بن عباد !.

خليفتان خارج الخلافة *

هل تعرف بين خلفاء المسلمين من اسمه محمد بن أمية أو من أسمه ابن عبو؟ ما من مسرد إسلامي أو غير إسلامي ذكر هذين الخليفتين. مع أن في مواقفهما من المجد أكثر مما في مواقف الكثير من الخلفاء ذوي الصيت والبساط الممدود وسنابك الخيل...

القصة في ذاتها جزء من أعنف الحروب الصليبية. جزء من فترة النصر الصليبي على المسلمين. وفي الأندلس بالذات. لا تظنوا أني سأقف بكم عند محاكم التفتيش. حكاية هذه المحاكم التي كانوا يسمونها دواوين التحقيق تبدأ عند حدود جهنم. عذاباً وقلع أظافير وتكسير أطراف على الدواليب وتمزيقاً بالخيل الجامحة والحبال وليلاً يبدأ ولكن لا نهاية له إلا في القبر. لن أقارب هذه الحكاية إنها جرح على الإنسانية يخجل منه أصحابه اليوم!

تبدأ قصة الخليفتين حين بلغ الاضطهاد الإسباني حده الأعتى. نوع من العمى الديني نشره القساوسة على كل العيون فإذا هي لا ترى إلا العدو المسلم العربي الذي كانوا يسمونه بالموريسكي... وبرز من بين الموريسكيين زعيم ثائر اسمه: فرج بن فرج اسم منتحل. لست تعرف أصله ولا مقابله الإسباني ولكنه كان رمزاً للتصدي بين أهل غرناطة وكان كالسر المصون. الكل يتحدث عنه والكل لا يعرفه. عقد الاتفاق مع حاكم الجزائر، ومع غزاة البحر.

* عرضنا لهذين الرجلين بشكل موسع في كتابنا: المغامرون.

وحين فشل الموعد الأول الذي حدد للثورة يوم الخميس المقدس (١٤ أبريل ١٥٦٨) عند تجمع الإسبان في الكنائس، عادت عناصر الثورة الإسلامية فاجتمعت في منزل بائع شمع يدعى عدل وحددت موعداً آخر يوم الأول من ديسمبر. كانوا مصممين على الموت أو الخلاص. حددوا انطلاق الثورة من ثلاثة مواقع في حي البيازين في غرناطة. بالسر المطلق كان يبلغ بعضهم بعضاً. وعين لقيادة الثائرين الشاب اللهب فرج بن فرج ! ..

المدد الذي أرسله حاكم الجزائر. أغرقته الأمطار الكثيفة والآلاف الستة من الثوار القادمين إلى غرناطة من جبال البشرات غمرتهم الثلوج. كان الشتاء في أوجه ولكن لا هذا ولا ذاك منع فرج بن فرج من التحرك في مخططه. ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ .. على أن فرجاً فشل في الاستيلاء على السجن والقلعة في غرناطة فخرج إلى الجبال الثلجية برجاله. وهناك، في الكهوف اختار الثوار خليفة لهم وملكاً على الموريسكيين (العرب المسلمين) هو محمد بن أمية. كان ذلك قبل ختام سنة ١٥٦٨ بثلاثة أيام. أو قبل حوالي ٤٢٧ سنة !

وما عرف الخبر حتى التهبت المنطقة كلها بالثائرين. وأرسلت السفارات إلى الجزائر والمغرب تطلب الإمداد والعون. وسقطت في أيدي الثوار قطاعات واسعة من جبال البشرات والسواحل والأقاليم الداخلية لغرناطة وملحقاتها ... وجن جنون الملك الإسباني فيليب الثاني وحاشيته وقسيسه لهذه الفاجعة غير المنتظرة. كان نجاحها لا يعني ذهاب ربع المملكة القشتالية من أيديهم ولكن يعني عودة المسلمين إلى غرناطة ! وهناك مكمن العقدة الصليبية استجمع الإسبان قواتهم جميعاً ومن كل فج. لا من إسبانيا فقط ولكن من لومبارديا في إيطاليا ومن نابولي وصقلية ومن شمال ألمانيا ... وحشدت هذه القوى لا لتحارب ولكن لتخرب كل شيء مع التدمير والقتل. كل الصلابة التي أبداها الموريسكيون كانت تغلبها على أمرها الأعداد الوفيرة من الجند وألوان

الدمار التي تلحقها بالمزارع والقرى. واستمرت الثورة مع ذلك صامدة بشراسة وصبر. لدرجة أن الملك فيليب الثاني اضطر أن يحضر بنفسه لقمعها ... ولكنه في اللحظة الأخيرة أرسل أخاه! خوفاً على نفسه!

لم تكن الثورة حرباً ولكنها كانت مجازر بلغت الحد الأعلى من الشراسة والقسوة. كان الموريسكيون يحاربون حرب يأس أخير. ظهرهم إلى الحائط. وكان الإسبان يحاربون وملؤهم القلق من عودة المسلمين إلى بلادهم. وحاصر الإسبان ثغور البحر لقطع الإمدادات المغربية عن الثورة وزجوا مالديهم وبأقصى مالديهم من القوى عبثاً. وأمر الملك بتهجير الموريسكيين المستقرين جميعاً من مواقعهم وقراهم. وسيق الآلاف كالأغنام بعد أن جمعت في الكنائس إلى شمال البلاد وأواسطها بعد قتل الأعداد الوفيرة منهم ... لكن!

فيما كان محمد بن أمية يحقق عملياً النصر تلو النصر فوجئ باتهام خطير. زعموا أنه مال إلى مهادنة الإسبان بعد أن تمكنوا من اعتقال والده وأحد إخوته ... وفي فورة هذا الاتهام تمت المؤامرة على ابن أمية وتم اغتياله ... وطويت صفحة البطل الذي أعاد للموريسكيين كرامتهم والأمل ...

لكن الثورة ما اهتزت أبداً. تابعت مسيرتها بقيادة جديدة تولاها خليفة جديد هو عبد الله محمد بن عبو الذي سانده حاكم الجزائر فازدادت انتصاراته وصار رعب المملكة القشتالية كلها. فأنشأ الملك فيليب جيشين اثنين للقضاء على الثورة وأمر باتباع سياسة الأرض المحروقة ... وما الأرض المحروقة؟ هي أن لا تبقي على شيء من القرى أو الماء أو الزرع أو البشر! ومشى الدمار والحرائق وتهجير السكان يمحو ما على الأرض من معالم الحياة. ووقع الآلاف في الأسر وأمروا فمشى بعض المستعربين الجبناء في مقدمة الجيوش ينصحون الناس بترك الثورة لئلا تنصب عليهم الويلات والثبور وعظائم الأمور ...

وحين تم تهجير كل من كان في غرناطة من المسلمين ومن في قراها وحكم بالموت على من بقي مختفياً فيها فقدت الثورة قاعدتها التي تستند إليها.

فقدت الشعب وعرض الإسبان على ابن عبو شروطاً للهدنة فرفضها . لم يكن يثق بهم فاختار أن يبقى قائماً على سيفه حتى ينكسر السيف . وفاوض الإسبانُ غيرَه وأغروهم بالوعود والأمان والسلام فقال ابن عبو لأصحابه . « ما دمت قد انتخبت خليفة فلن أستسلم ولو بقيت وحدي في جبال البشرات ... » .

وحين يئس الإسبان من الثائر كانوا قد هيأوا ضده الهجوم العام والأخير . فاجأوه بالكهوف والمغاور وبإحراق الناس أحياء ... وأخيراً دبروا من تآمر على ابن عبو بالاغتيال مع عدد من أصحابه ! .. ولم يصدق الإسبان أنهم قتلوا رأس الثورة حتى رأوا جثته . فحشوها ملحاً وحملوه محنطاً على فرس في قفص حديدي وتجولوا بهذا الموكب الحزين في شتى أرجاء مملكة غرناطة ... إرهاباً وشماتة !

هل خنقت الثورة بذلك يا ترى ؟

أبداً لقد بقيت بعده مع كل ذلك سنتين أخريين ! .

الصليبيون ... الأطفال

هل يبلغ الهوس ببعض رجال الكهنوت أن يجندوا الأطفال ويرسلوهم إلى الحرب ؟ لقد أخذوا على نابليون أو على هتلر أنهما أرسلا إلى الجبهة فتياناً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة أما الأطفال في الثامنة والعاشرة فمن ذا الذي يجندهم ؟ مع ذلك فبعض رجال الدين في أوروبا أيام الحروب الصليبية جندوهم فعلاً ... والمثير حقاً أنهم انتظروا منهم المعجزة التي لم يقم بها قروم المحاربين ...

إثر الحرب الصليبية الثالثة ، وإثر فشل هذه الحملة التي قادها ملك فرنسا فيليب أوغست وملك إنكلترا ريشارد قلب الأسد ضد صلاح الدين اكتسحت أوروبا موجة من اليأس والمرارة . وأخذ الناس يقلبون وجهات النظر : كيف فشل الملكان ؟ وما السبيل إلى استرداد بيت المقدس من « الكفار » المسلمين في زعمهم؟ وراجت شائعة أن ذنوب الكبار وفسادهم هي التي أفشلتهم . فالقدس لا ينقذها إلا الأطهار الأبرياء من كل ذنب كالأطفال .

وبينا كان فيليب أوغست الملك الفرنسي عاقداً مجلسه في سان دنيس بشمال فرنسا وسوس بعض رجال الدين إلى طفل اسمه ستيفن أن يقابل الملك ويسلمه رسالة تقول بأن السيد المسيح سلمه إياها بنفسه أثناء قيامه برعي غنمه وأمره فيها أن يقوم الأطفال بالحملة الصليبية التي تخلص القدس وتنقذ المسيحية !

ومع أن الملك لم يلق بالاً للرسالة إلا أن الطفل ستيفن مدفوعاً من رجال الدين الذين يقولون بذلك أصر على التبشير بالدعوة بين القرى والمدن ، مؤكداً أن البحار سوف تنشق أمامه كما انشق البحر لموسى . وسوف يعبر

الأطفال مشاة إلى القدس. وتكاثرت جموع الأطفال حول ستيفن. بعضهم برغبة من أهله أو برغبة من القسس أو برغبتهم أنفسهم تبعاً لخيالهم الديني اجتمع له حوالي خمسين ألف طفل لا يجاوز أكبرهم الثالثة عشرة. وبينهم بعض أبناء الأمراء وأعداد من الفتيات أيضاً. وزحف الجمع كله عبر المدن والقرى إلى البحر عند مرسيليا في الجنوب الفرنسي. الكثيرين آمنوا أن البحر سينشق وأن الحملة ظافرة وتبرعوا لها بالكثير من الثياب والطعام والمال والأحذية!.. في مرسيليا كان الاستقبال الحماسي الهائل للأطفال كافياً ليقنع الجميع أن المعجزة لا بد واقعة!.. وتجمع الأطفال على الشواطئ ورجال الدين المرافقون يباركونهم ويصلون... ولكن البحر استمر هو البحر ما هدأت أمواجه ولا انشق عن فرجة أو طريق. أياماً طويلة انتظروا عبثاً حتى افترسهم اليأس... تطوع اثنان من أثرياء التجار بنقل الأطفال إلى المشرق لعل المعجزة تتم ولعل.. ولعل.

على سبع سفن كبيرة تكدس الأطفال، وأبحرت الأشرعة بهم في عرض البحر... لكن لم يسمع أحد بعد ذلك خبراً عن مصيرهم... كل الناس آمنوا أنهم انتهوا إلى أسواق العبيد! هل انتهت القصة؟.. أبداً. عدوى الشائعة وقصة طهارة الأطفال وحكاية المعجزة كانت قد انتقلت إلى ألمانيا... فبعد أسابيع من رحيل جماعة ستيفن قام طفل آخر في حوض نهر الرين اسمه نقولا يبشر بما بشر به صاحبه. لم يكونوا بعد يعلمون عن غياب الجماعة الأولى إلى الأبد.. لكنهم كانوا أكثر تواضعاً في الأهداف. المعجزة بانشقاق البحر سوف تقع. لا يشكون في ذلك ولكنهم لن يحاربوا وإنما سوف ينجحون في تحويل المسلمين جميعاً إلى المسيحية عن طريق التبشير السلمي.

وكما تجمع الآلاف حول ستيفن اجتمع مثلهم حول نقولا زاحفين إلى الجنوب تحف بهم كواكب من القسس والمرشدين... لكن كان عليهم في الطريق إلى جنوا على البحر المتوسط أن يجتازوا جبال الألب بوديانها وثلوجها

وصخورها المسنونة . فهلكوا ثم هلكوا على الدروب الجبلية حتى لم يصل منهم إلا الثلث . الإشفاق والمعونات والحماسة وصلت بهؤلاء إلى جنوا وأضرب الكثير عن متابعة الطريق فتبنتهم بعض الأسر الإيطالية . وأما الفريق الباقي وكانوا حوالي عشرة آلاف فقد قدم لهم بعض التجار الأثرياء بعض السفن أيضاً فأبحرت بهم من مدينة بيزا ومدينة برنديزي ... ولكن إلى حيث لا يعلم أحد !

آلاف الأسر في فرنسا وألمانيا ظلت سنوات تنتظر خبراً عن هؤلاء الأطهار وعن المعجزة التي ستتحقق على أيديهم ولم يستطعها الكبار ... وعبثاً ما انتظروا . المتفائلون قالوا : إن العواصف ابتلعت مراكب هؤلاء الأطفال أما الذين يدركون أن العواصف لا يمكن أن تأخذ أكثر من عشر سفن مرة واحدة والحملتين معاً فلا يظهر لهما أثر فكانوا يعتقدون أن أسواق النخاسة في شمال أفريقيا هي التي استقبلتهم وحملت بعضهم إلى الاسكندرية وبعضاً إلى بغداد .

كانت حكاية الصليبيين الأطفال مأساة مروعة . ترى أليست هذه المأساة كافية لتكشف إلى أي مدى بلغت وضاعة المحرضين على الحروب الصليبية في استغلال طهارة وسذاجة المتهورين فيها ؟

تستروا حتى وراء الأطفال وفي النهاية باعوهم عبيداً !.

الكاردينال بلاجيوس

بعد أن انتهى عهد صلاح الدين ومضى على حطين ثلاثون سنة ، استقر في أذهان الصليبيين الفرنجة أن لا قرار لهم في الساحل الشامي ولا احتكار ممكناً لهم في التجارة المشرقية إن لم يأخذوا مصر . فصارت دمياط المرفأ التجاري الضخم هي همهم وهدفهم بدل القبر المقدس . هذا على الأقل ما اقتنع به حنا دوبرين الملك الاسمي للقدس في مقره في عكا . تجاربه وهو الشيخ الكبير علمته ذلك وأيد فكره الصليبيون في قبرص وجماعتا الداوية والاسبتارية واستنجد الرجل بكل القوى الممكنة من أوروبا حتى لقد اتصل بنجاشي الحبشة وابتعثه لكي يتعاون معه بغزو الحجاز وهدم الكعبة وضرب المسلمين في حرميهم المقدسين ... ليقوم هو بالهجوم على مصر .

هذه الحملة هي التي عرفت بالحملة الخامسة سنة ١٢١٨ وقد اختارت النزول في دمياط البحرية لأن طريق الصليبيين عبر سينا والصحراء الشرقية كان مسدوداً ، تحتله القوى الأيوبية ومع أن دمياط كانت محصنة أحسن التحصين وأمامها برج رهيب هو برج السلسلة فقد استطاع الصليبيون تجاوز كل العقبات واحتلال هذا البرج الذي كان يسد عليهم مدخل النيل وطوقوا المدينة التي كان منتظراً سقوطها القريب ...

في ذلك الوقت أرسل البابا إلى الحملة إمدادات كان على رأسها كاردينال يعرف بالكاردينال بلاجيوس . كان رجل دين ويصر على أن يكون قائد جيش بما يوازي رتبته الدينية كان مرسلاً من البابا قائداً أعلى للصليبيين في

مصر فقد كان من الغرور بحيث يفرض رأيه في كل أمر . وازدوجت القيادة الصليبية . وكان يعتقد أن دمياط هدف سهل لن يقاوم أياماً مع اضطراب المعسكر الإسلامي ووصول النجدات من قبرص إليه متوالية متتابعة ... ولكن دمياط قاومت تسعة أشهر باسلة حتى الإعياء ...

كان الملك المدافع عن دمياط هو الكامل الأيوبي الذي شعر بما هي عليه دمياط من الضيق الشديد فاقترح على الصليبيين أن يعيد إليهم مملكة القدس كلها عدا الكرك والشوبك (لأنهما الممر بين الشام ومصر) مقابل فك الحصار عن دمياط والجلاء . كان هذا أسخى عرض يمكن أن يحلم به الصليبيون . ووافق الصليبيون جميعاً إلا القائد الأعلى بلاجيوس ركب رأسه وأيده في ذلك الاسبتارية والداوية والإيطاليون الذين رأوا في احتلال دمياط كسباً تجارياً هائلاً لا يجوز أن يضيع ولو كانت القدس هي الثمن !

ورفض العرض .. واغتر بلاجيوس وأنصار رأيه فأخذوا يهاجمون معسكر الملك الكامل بدل التركيز على ثغر دمياط .. واعترض حنا دوبريين ملك عكا عبثاً فاتهموه بالخيانة ! وبخاصة حين جاءهم العرض الآخر الأسخى من الكامل بمنحهم مقابل الجلاء ما بين عسقلان والقدس وطبرية إلى جبلة واللاذقية أي جميع ما كان صلاح الدين قد فتحه بسيفه . فأبى بلاجيوس قال : لا نترك دمياط حتى تسلموا كل ذلك إلينا ! وزاد مع أصحابه من الداوية والاسبتارية والإيطاليين في المطالب التي كان دوبريين يرى فيها كسباً كبيراً ...

كان ثم وراء عرض الكامل أسباب كثيرة . منها المجاعة في دمياط حتى امتلأت الطرق بالموتى ومنها انخفاض فيضان النيل تلك السنة . ومنها غلاء الأسعار بشكل رهيب ومنها قلق الأمراء الذين معه في الشام من الخطر المغولي المداهم ..

وكان ما لابد أن يكونا إنّا إلى اللّه راجعونا

وسقطت دمياط بيد الفرنجة أواخر سنة ١٢١٩ في مذبحة فاجرة! شملت القرى التي حولها. وحولوا جامعها الكبير كنيسة! لكنهم مقابل ذلك تنازعوا في ملكيتها فقد كانت هذه الملكية تعني السيطرة على ممر التجارة العالمي بين الشرق والغرب ...

كان هذا في الوقت الذي كان المغول فيه يدمرون مدينة بعد أخرى في المشرق الإسلامي ويتقدمون نحو العراق والشام... والبلاد العربية مهددة بالبوار... كانت أتعس لحظات الخطر في الشرق الإسلامي... لكن الأزمة الرهيبة لم تدم طويلاً وجاء حلها على أهون السبل ومن حيث لا ينتظر أحد. غضب ملك القدس لاستبداد بلاجيوس بالرأي فانتحل بعض الأعذار وعاد بجيشه إلى عكا سنة ١٢٢٠ فعاقبه بلاجيوس بمنع النشاط البحري بين دمياط وعكا.

وجاء في هذه الفترة العرض الثالث من الملك الكامل أن يسلم الصليبيين ما بين عسقلان إلى اللاذقية بما في ذلك القدس وطبرية وصيدا وجبلة... ورفض بلاجيوس من جديد هذا العرض الذي يلغي كل نتائج حطين وطلب فوق ذلك ٣٠٠ ألف دينار تعويضاً عن تخريب القدس كما طلب تسليم الكرك! وقرر الزحف إلى القاهرة بعد أن وصلته عدد من النجدات لا تقدر. وبالمقابل اجتمع مع الملك الكامل أخوانه من الشام وأهل القاهرة والقرى والصعيد في عالم لا يقع له حصر. كانت المعركة المنتظرة معركة حياة أو موت. وعسكر الكامل على الطريق في موضع فيما بعد المنصورة وانبث الناس ما بين الزروع كالجراد المنتشر!

وحاول الكامل للمرة الرابعة تكرار العرض فطلبوا فوقه ٥٠٠ ألف دينار بالإضافة إلى الكرك والشوبك. ويئس الكامل اليأس المرير. في حين أوغل الفرنجة في الدلتا وبين فروع نهر النيل... وفجأة تمت المعجزة من حيث لا ينتظر أحد. فتح عليهم المسلمون السدود والجسور من نهر النيل، وكان

الفيضان في الإبان فتحولت الأرضين وحلاً وطيناً لا تكاد تثبت عليها قدم . ووجد الفرنجة أنفسهم في مصيدة من الوحول لا تنتهي . تأخذهم أنواع الأسلحة من كل جانب وهم لا يملكون حتى فرصة الدفاع !

وأرسلوا إلى الكامل يعرضون الجلاء عن دمياط والبلاد كلها مقابل السماح لهم فقط بالخروج سالمين من قفص الطين ... فاشترط الكامل أن يبعثوا إليه رهائن من ملوكهم ريثما يسلموا دمياط . وكان بين الرهائن الكاردينال بلاجيوس نفسه وملك القدس حنا دوبريين ذاتهما ... وفشلت الحملة الخامسة في بحر الطين ... هل يذكرنا ذلك يا ترى بالتعنت الإسرائيلي وبالرؤوس الحجرية التي تدير سياسته ؟.

فريدريك الثاني

الأمير فخر الدين يوسف ، رجل من أمراء الملك الكامل الأيوبي سلطان فلسطين ومصر قبل ثمانمائة سنة . كان رسوله الدائم إلى الإمبراطور فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا وصقلية معاً . لو قـدِّر لهذا الأمير أن يكتب مذكراته فماذا كان يكتب عن الإمبراطور فريدريك يا ترى ؟ كان ممكناً أن يقول :

هذا الأنبرور من أبرز شخصيات الفرنجة غرابة . وإنه ليس كمثل الفرنجة الآخرين أبداً . ولعل لمرباه في صقلية ضمن أجواء كلها عربي ، ولثقافته الواسعة في الفلسفة والرياضيات والهندسة والجدل ولمعرفته بست لغات إحداها العربية وتذوقه للشعر العربي وغيره ومهارته في السياسة والمنطق والقانون ربما كان لهذا كله تأثير على شخصيته الخاصة بين الفرنج . ولقد بعثني الملك الكامل إليه مرات من صقلية ثم رافقته حين قدم إلى الشام فكان وهو الفرنجي المسيحي فرداً في تسامحه وسعة عقله واتزان تفكيره ولا والله ما سمعت منه مرة ما تسمع عادة من الفرنج من شتم أو انتقاص أو أذية لمسلم . فكأنه منا وإن لم يكن منا وكان المؤذنون يؤذنون بكل فرض في معسكره دون خشية .

وكان لأسرته مع البابوية نزاع طويل عمره أكثر من مائة وخمسين سنة ولقد حمله إرثاً عن أبيه وجده . البابا يريد السيطرة على العالم باسم السيد المسيح والأنبرور يريد مثل ذلك باسم لقبه الأنبروري .. ولقد سألني مرة ونحن في عكا عن الخليفة وكنه الخلافة فحكيت له أن الخليفة يتحدر من نسل رسول الله وأنه ورث عنه حقوقه في حكم المسلمين وعندئذ أجابني بأن ذلك

هو المنطق السليم لا مثل البابا الدجال الذي لا تربطه صلة قربى بالمسيح ومع ذلك يدعى الحق في حكم المسيحيين !

ولقد جرت في بلادنا أمور استوجبت أن يرسلني الملك الكامل أدام الله عزه إلى هذا الأنبرور الفذ في طلب الاستنجاد به . ومليكنا بدوره كان واسع العقل متسامح النفس واسع العلم ينام جماعة من العلماء منهم علم الدين قيصر الحنفي المعروف باسم تعاسيف بجوار مخدعه بالقلعة لينفق معهم الليل في النقاش بمختلف العلوم .. ولعل هذا ما حبب إليه الأنبرور العالم .. لكن أساس التقارب بينهما لم يكن العلم ولكنها السياسة . والملك المعظم أخو ملكنا الكامل سلطان دمشق بلغ به الجشع لحيازة الأرضين حداً سجن معه أخاه الأشرف ولم يطلقه حتى تعهد له بتسليم بعض المدن إليه وإن لم يف بذلك . وإلا بعد أن تعهد له بالتحالف معه ضد أخيهما الثالث الكامل وهذا ماأثار مليكنا وجعله يبحث عن معين له ضد أخيه المعظم الذي مد يده إلى جيوش الخوارزمية يستعين بهم . فأرسلني مليكنا أعزه الله إلى الأنبرور في طلب المعونة منه أيضاً مقابل تسليمه كل ما فتحه صلاح الدين في الشام حتى القدس. ولم يكن الأنبرور فريدريك في حاجة إلى من يستدعيه إلى المشرق فقد كان صاحب الكرسي البابوي يلح عليه باستمرار أن يقوم بحملة صليبية على المشرق بعد فشل الحملة الخامسة . وكان يماطل فيها ويماطل حتى وصل الأمر بالبابا إلى الغضب عليه وإصدار قرار بالحرمان ضده سنة ١٢٢٧ . وهذا القرار من أخطر وأشد ما يصدر عن البابا من العقوبة لأنه والعياذ بالله يجعله أمام النصارى مسكوناً بالشيطان ويحرم على زوجته وأولاده الحديث معه وعلى أعوانه أن يكونوا معه . وبهذا وصل النزاع قمته ...

وبين إغراء مليكنا الكامل وتشهير البابا بتخاذل الإمبراطور وعقوقه عن إنجاد النصرانية قرر الأنبرور المسير ولكن بحملة صغيرة من ٥٠٠ فارس سبقتها بعض السفن بالجنود .

نزل الأنبرور في عكا سنة ١٢٢٨ وكانت بيد الفرنجة وتشكل مملكة صغيرة. يقول الأمير فخر الدين: وهناك لقيته فشكا لي أن تطورات الأمور في هذه المملكة الصليبية الصغيرة لم تدع له أن يكون أكثر من وصي على طفل صغير ورث المملكة كما شكا لي ظروفه الغريبة فقد كانت الحملات الصليبية الأخرى ما سبق منها وما لحق تسير تحت عباءة البابوية ومباركتها وحملته محرومة من قبل الكنيسة. والحملات الأخرى تجلب معها الأكداس من الرجال والسلاح والخيل وليس معه سوى ٥٠٠ فارس. والحملات الأخرى تأتي ممتلئة حتى الأعناق حقداً على المسلمين ويأتي بالعكس وملؤه التسامح. فكأنه في زيارة لصديقه مليكنا الكامل...

وحرت ماذا أجيبه فإن سبب الاستنجاد به قد زال فالملك المعظم عدُونا قد مات سنة ١٢٢٧ ولم يعد لنا حاجة بمعونة الأنبرور. وحين ذكرت ذلك له تلون فكأن خيبة الأمل كلها صبت في وجهه فقد طار حلمه باسترداد القدس وغيرها مع الريح.. ولم يكن مليكنا الكامل أقل حيرة من الأنبرور ولا حرجاً فإنه هو الذي استدعاه ووعده الوعود فماذا يفعل به وبجنوده؟ وجنود الأنبرور قليلون لا ينفعون لحملة ولا لغيرها فليس يستطيع أن يحارب كما لا يستطيع العودة إلى بلده فاشلاً لأن ذلك يعطي النصر للبابا عليه ويفتح له باب التشهير به على مصراعيه. بل إن البابوية أرسلت إلينا تحرضنا على أن لا تسلم لهذا المحروم لا القدس ولا غيرها...

ولقد قمت بالمفاوضات جميعاً وكانت عسيرة طويلة شديدة النفس لجأ فيها الأنبرور حتى إلى البكاء والاستعطاف لشدة جزعه أن يعود خائباً. وطلب القدس إنعاماً وصدقة فاشترط عليه مليكنا عدداً من الشروط فقبلها وعقد معه صلح يافا سنة ١٢٢٩ الذي يتسلم به القدس دون المسجد الأقصى وثار المسلمون والصليبيون معاً لهذا الصلح. بلغ السخط على مليكنا في العالم الإسلامي أوجه وعظم الصراخ والعويل في القدس وفي كل مكان وحضر الأئمة

والمؤذنون إلى معسكر الكامل فأذنوا في غير وقت الصلاة . وكثرت الشناعات عليه ... وأقيمت المآتم ... وبالمقابل غضب الصليبيون لأخذ القدس سلماً بدل الحرب ولأخذ المسلمين فيها حقوقاً لا يجب أن يأخذوها في زعمهم ولا قيمة لما يأخذه محروم من الرحمة فأوقعوا الحرمان على المدينة المقدسة كلها ... وبالرغم من كل ذلك فقد توج فريدريك نفسه بنفسه في كنيسة القيامة وعاد إلى بلاده ...

هذا ما قد يرد في مذكرات الأمير فخر الدين يوسف عن مغامرة الحملة الصليبية الثالثة التي انتهت دون نقطة دم ويبقى السؤال المحير : هل أخطأ الكامل ؟ هل أخطأ فريدريك ؟.

حطين الثانية استرداد بيت المقدس

حطين التي نعرف كانت حطين الأولى لكن كان من بعدها حطين الثانية صامتة ... بلى! فيوم استجاب الملك العادل الأيوبي لدموع صديقه فريدريك الثاني وقبل أن يعيد إليه القدس سنة ١١٢٩ باتفاقية سلمية لم يحسب حساب سيول الدموع التي سوف يسيلها المسلمون في كل مكان لهذه الاتفاقية ولا للمآسي التي تسببها ولا للسمعة السوداء التي لطخت اسمه لدى كل مسلم. العويل كان يسد الآفاق والمسلمون يخرجون من القدس وصدى المآتم واللطم في رؤوسهم. ولعل الكامل سمع كل ذلك في معسكره وندم .. ولكن لات مندم!

على أن ورثة الكامل كانوا أكثر تفريطاً منه. وحين اختصوا فيما بينهم على الميراث وقامت المؤامرات والدسائس لجأ بعضهم إلى الاتفاق مع الفرنجة ضد بني أبيه ووعد بتسليم معظم ما فتحه صلاح الدين إليهم. وكان أفجع المواقف ذلك الذي قام فيه الصالح أيوب حاكم مصر من جهة والصالح اسماعيل صاحب دمشق وحليفه الناصر داوود في الكرك من جهة أخرى بإطلاق يد الفرنجة في القدس إن أعانوا جماعة ضد الأخرى. كان ذلك سنة ١٢٤٣ — ١٢٤٤ وصار الحرم الشريف للفرنجة وأبطل الأذان. وأقيم الجرس في المسجد الأقصى ... ولا تسل عن المرارة التي عمت جميع المسلمين لذلك التخاذل والخزي. وكثر الترحم على صلاح الدين ... وأنى مثل صلاح الدين؟..

على أن الفرج أتى من حيث لا يحتسب الناس. ومن أقصى الأرض ...

كانت جموع واسعة من مملكة خوارزم الإسلامية الواقعة على بحر أرال

في الشمال قد تشتت شملها بعد مقتل سلطانها جلال الدين منكوبرتي سنة ١٢٣١ وكانت هذه المملكة المسلمة هي السد الذي وقف في وجه الزحف المغولي زمناً طويلاً . فلما انهار غزا المغول إمبراطوريته وأخذوا أذربيجان وأرمينية الكبرى . أما جيوش الخوارزمية وسكانها فهربوا وتمزقوا في كل فج . استقر جزء كبير منهم في الجزيرة حول حران ونصيبين . وكانت عطالتهم من جهة وفقرهم من جهة أخرى يدفعانهم إلى الإغارة على المناطق المجاورة للنهب والسلب . ووصلوا في غاراتهم شمال الشام وقاست منهم منذ سنة ١٢٤١ حلب ومنبج والمعرة وغيرها . وارتكبوا كعادة العصابات المنفلتة ما ارتكبوا من النهب والقتل والزنا والفواحش . وفاقوا في ذلك المغول !

وقد هزمهم قرب الرها سنة ١٢٤١ تحالف أيوبي من أصحاب دمشق وحمص وحلب . كانت الهزيمة منكرة لدرجة قطعت دابرهم فلم تعد عصابة منهم تجرؤ على تخطي المناطق التي استقروا فيها بين الرها وحران . . .

رؤساؤهم كانوا من المغمورين وأفرادهم من المغامرين والكل كان من المرتزقة يعرض خدماته لمن يشتريها . وسمع بهم الملوك الأيوبيون بالطبع وخطر للصالح أيوب صاحب مصر أن يستعين بهم فأرسل يستدعيهم وسرعان ما لبوا النداء الذي كانوا ينتظرون . واخترقوا بلاد الشام في فرحة كبرى .. كانوا حوالي عشرة آلاف . ولما كانوا يعرفون أن الصالح أيوب إنما استدعاهم ليقف في وجه التحالف الأيوبي الصليبي بين ملوك دمشق وحمص والأردن والفرنجة لغزو مصر فقد أغاروا على ما استطاعوا من المدن والقلاع التي صادفتهم في طريق دمشق من صليبية وإسلامية . . .

وكانت دمشق حصينة قوية فانصرفوا نحو طبرية واستولوا عليها ثم على نابلس ومنها قصدوا بيت المقدس . الحملة كانت حملة نهب وغزو وسلب . لم يجدوا أمامهم قوة تقف لهم فشقوا الشام من الشمال إلى الجنوب بسهولة يغنمون ويغنمون وكان بيت المقدس أشبه بمدينة مفتوحة قد تهدم سورها منذ

خمس عشرة سنة وليس فيها زعيم فرنجي يدافع عنها سوى بعض رجال الدين وجماعة من الاسبتارية والداوية. فأرسلوا في الاستغاثة إلى كل ناحية: إلى أمير أنطاكية وطرابلس بوهيمند الخامس وإلى ملك قبرص هنري الأول وإلى أهل عكا الصليبيين وإلى حلفائهم الأيوبيين ملوك حمص ودمشق والكرك... غير أن أحداً لم يجب النداء. كان الصمت واللامبالاة موقف الجميع. فلا صدى ولا نجدة! وإذا كان الصليبيون في شغل بمشاكلهم الداخلية فإن الملوك الأيوبيين ما كانوا ليجرؤون على التدخل لحماية مصالح الصليبيين في القدس والرأي العام الإسلامي يرقب أعمالهم بحذر وقسوة.

واقتحم الخوارزمية مدينة القدس (يوليو ١٢٤٤) بالسهولة نفسها التي اقتحوا بها غيرها من المدن. لا الدموع الصقلية ولا الإسلامية فعلت شيئاً في هذا الفتح الثاني للقدس. جموع الخوارزمية كانت جموعاً من الشعب المسلم قامت بعملها دون ضجيج ومزقت اتفاقية ١٢٢٩ التي عقدت بين الملك العادل وفريدريك الثاني فكأن لم تكن...

وتوسط ملك الكرك لتأمين خروج النصارى من المدينة وخرجت قافلة منهم من حوالي ستة آلاف وما إن ابتعدت عن المدينة ورأى الخوارزمية ما تحمل من الأثاث والرياش والذهب حتى لحقوها بالسيف ناهبين. وقتلوا منها حوالي الألفين. وتعرض الباقون للمطاردة حتى يافا فلم يصلها منهم أكثر من ثلاثمائة فقط! ونهب الخوارزمية كنيسة القيامة ودمروا معظمها ثم خرجوا إلى غزة وهناك كانت المعركة الساحقة بين الحلف الأيوبي الصليبي وبين جيوش الصالح أيوب والتي هزم فيها الحلف هزيمة ساحقة. وقدر القتلى منه بأكثر من ثلاثين ألفاً منهم مقدم الداوية وسيق للأسر ثمانمائة. منهم زعيم الاسبتارية.. فكانت أعظم كارثة حلت بالفرنجة بعد حطين! كانت «حطين الثانية».

هل عرف الخوارزمية يا ترى معنى العمل الضخم الذي قاموا به ومعنى استرداد القدس التي لم يدخلها فرنجي غازٍ بعد ذلك حتى سنة ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى؟.

أول من رأى الأرض الأمريكية

في تلك الساعات التي كانت فيها مراكب كريستوف كولومب الثلاث تشد المراسي من الماء وتنشر الأشرعة لتبحر في بحر الظلمات. كانت على الشاطئ قلة من الأعين تبكي. نساء الضباط وحبيباتهم هن اللواتي كن يودعن أما البحارة العاديون فقلما رأوا عيناً تبكي عليهم، كان معظمهم من خريجي السجون. الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا، المنتصران على غرناطة وجدا من الخسارة أن يركب البحر إلى المجهول بحارة أحياء فاستخرجوا من وراء القضبان الحديدية والحفر السوداء أولئك المحكومين بالموت أو ما يشبهه ممن يعرفون الملاحة ليكونوا مع كولومب في رحلة العماء والمجهول. إنهم على أي حال من الهلكى. ولن يفقد الملكان شيئاً لو علكهم اللج البعيد أو شوتهم الشمس التي كانوا يتصورون أنها تنطفئ في أقصى الغرب. وكان جانب من هؤلاء المغضوب عليهم من المسلمين. لذلك لم يلتفت واحد منهم إلى الوراء حين تحركت السفن ولا أسفوا. كانوا ينظرون غرباً في أقصى الآفاق وينتظرون الهلاك أن يأتيهم بغتة. أعتقوهم من السجون لخبراتهم في السجن الأعظم: المحيط الأطلسي ولم يكن يعلم نهايته ولا أبعاده أحد...

كانت كثير من الأحلام الذهبية تراود المراكب والراكبين بقدر ما كان يرهقهم جزع الموت. أما البحارة البائسون فكان حلم واحد قد يزورهم في معترك الليل حين يهدأ كل شيء فلا يبقى إلا سقسقة الموج تضرب أطراف السفن ثم تفر هاربة، أو قبيل الفجر حين يبدأون العمل في غسيل أخشاب السفينة وممراتها. لقد سمعوا بأن الملك فرديناند وعد بمنح عشرة آلاف دينار

ذهبي لأول من يرى أرض الهند الموعودة ... ولكن الحلم انمحى مع مصاعب الطرق وهزات الرعب والمذلة ...

كل أسمائهم كانت إسبانية ومن ذا الذي كان يجرؤ بعد أن منح الاسم الاسباني مرغماً ثم عمد في الكنيسة على تغييره؟ أو الهمس باسمه الإسلامي القديم؟ فيديريكو . بترو . أدواردو . خورخيه وأخرى كثيرة كانوا يتداولون هذه الأسماء بينهم ومن ذا الذي يجرؤ على الضحك منها؟ .. كلهم على الصمت الأخرس . والمراكب تجري وهم تارة في تحضير الطعام وأخرى في غسل الموائد أو تقديم النبيذ أو يتسلقون الأشرعة كالقرود طياً ونشراً . لكن عيونهم كلما مضى يوم على المسيرة المجهولة كانت تزداد بحلقة في الأفق الغربي لعل خيطاً من أرض يرتسم في الأفق ... وعبثاً ما كانوا ينظرون !

ولم يكن واحد منهم يتمنى أن يحتبس نهاراً أو ليلاً في أعلى سارية السفينة يرصد هذا الأفق الذي لا يظهر له أثر . كانت المراقبة نوعاً من التعذيب . يختارون لها الأجلاد ذوي القوة والعناد .

واحد من هؤلاء أرسل إلى أعلى السفن يراقب والليل صقيع متصل . هل زاره النوم؟ لست تدري . لكنه استفاق ينظر إلى الأفق البعيد بشيء من عدم التصديق . صحيح أنهم رأوا الطيور قبل ذلك ولكن أين مهابطها؟ وبعض أغصان الشجر على الماء ولكن أين منابتها الأولى . أما الآن فإن المراقب المهجور في أعلى السارية يرى . بلى ! يرى : وصاح : الأرض ! الأرض وبدأ يهبط السارية نزولاً كالمجنون وقد استفاق فيه حلم الآلاف العشرة من الدنانير الذهبية . وتجمع البحارة حوله ينظرون حيث يشير :

ـــ إنها الأرض .

ولحق بهم الضباط وأحكموا مناظيرهم وهي كليلة محدودة المدى ولكن ما من أحد يماري في أنها أرض فعلاً . وأصابت بعضهم لوثة فرح فإذا هم يرقصون ويغنون ، إنهم أخيراً تخلصوا من محيط الماء الأصم المرعب . تخلصوا من

اليأس الذي افترس أكبادهم في الآونة الأخيرة بخاصة . وخرست الألسنة التي كانت تطالب كولومبوس بالعودة الفاشلة !

على أن مبلغ العشرة آلاف دينار ذهبي التمعت لكولومبوس بشدة . كيف يأخذها هذا البحار « المسلم » ولو تنصر ؟ بدأ يقصيه عن مجال الجائزة والحديث ما استطاع . يكلفه من أمره عسراً . يضطهده . حاول تركه في بعض الجزر عند العودة . أبعده عن كل الأضواء ولكن الرجل على ما يبدو وصل إسبانيا وبدأ يطالب بحقه في الدنانير الذهبية . ولعله كتب بذلك إلى الحاشية وإلى الملك . ولكن من ذا الذي يرد على ملاح عادي وسجين سابق ومسلم مرتد ؟ ..

وضاقت السبل بالرجل وضاقت الآمال . الآذان كلها صماء وبعضهم ينظرون إليه نظرة نصف مجنون في حين كانت الاحتفالات بكولومبوس وجماعته تصدح بأعلى أصواتها في كل مكان . مجد كولومبوس سحقه حتى العظم ...

وذات يوم اتخذ الرجل قراره . نضا عنه ثوبه المسيحي المستعار . ألقى اسمه الجديد للشيطان . ترك المجتمع الإسباني كله واتخذ سبيله إلى الجبال . جبال البشرات . كانت هذه الجبال هي الحصن المنيع الذي يلجأ إليه المسلمون الفارون من الحكم الإسباني ومن مظالم محاكم التفتيش ...

الملك فرديناند وقرينته إيزابيلا نقضا معاهدة السلم مع أبي عبد الله الصغير . منذ ١٤٩٩ أتيا براهب مقاتل هو الكاردينال سيسنيروس الذي وضع مخططاً للقضاء على الشخصية الإسلامية في إسبانيا وفرض التنصير القهري على السكان . لا بمنع الدين فقط ولكن بمنع اللغة العربية أيضاً كتابة وقراءة . ومنع الملابس العربية نفسها . ومنع الخياطين من صنعها . ومنع الحمامات والأطعمة والصوم وكل ما ينم عن علاقة مع الماضي العربي . كما خطط

للاستيلاء على موانئ المغرب العربي فاستولى على وهران وعلى المرسى الكبير . وجوبهت هذه السياسة بصمود السكان وقيامهم بأولى الثورات سنة ١٤٩٩ التي استمرت ثلاث سنوات ثم سحقتها في النهاية محاكم التفتيش !

رجلنا الذي لحق بجبال البشرات لحق بهذه الثورة المسلمة وظل يقاتل فيها حتى قتل ! لا يعرف أحد اسم هذا الرجل . ولكنه بين الثائرين كان يعرف بعبد الله !

كان مسلماً !.

أبغا المغولي

الناس كل الناس سمعوا باسم هولاكو المغولي وعمه جنكيز من قبله وهما لدى الناس صورة الشيطان البارز الأنياب لكن هل أتاهم خبر أبغا ابن هولاكو؟ لا يهمنا من هذا الرجل لا عيونه المائلة كالقطط ولا طريقة إدارته للحكم حتى ولا حروبه وسنابك خيله تحفر الأرض. شيء واحد في هذا الرجل كان يشكل الخطر الأكبر فيه. فكرة صغيرة ولكن كان يتعلق بها مصير الملايين من المسلمين في هذا الشرق الإسلامي هي أن يطوق بالاتفاق مع الصليبيين هذا الشرق ويمحو الإسلام والمسلمين فيه. كانت هذه الفكرة هاجسه القيم. وعمل لها الكثير.

ولم تكن الفكرة جديدة فقد كانت فكرة أبيه هولاكو من قبل. كما كانت من أحلام الصليبيين والرؤوس المدبرة لهم في أوروبا. وإذا لم يحققها هولاكو فلأنه كان كثير الاعتداد بجموعه الزاخرة الرهيبة لا يقبل مساعدة أحد. أما الصليبيون فكانوا يجدون في المغول الوثنيين غنيمة سهلة لاجتذابهم إلى المسيحية. ولقد نجحوا فعلاً لدى بعض كبارهم وتزوج بعضهم من بعض النصارى النسطوريات.. وقبيل سنة ١٢٥٠ وقبل سقوط بغداد والخلافة العباسية أرسل البابا أنوسنت الرابع مبعوثاً من الفرنسيسكان اسمه حنا دي بلانو كاربينس إلى خاقان المغول هولاكو ولكن هذا رفض بغرور واشترط دخول البابوية وجميع ملوك وأمراء الغرب تحت سيادة المغول... ولم تنجح السفارة كما لم تنجح السفارة الأخرى التي أرسلها البابا إلى ييغوا زعيم مغول القفقاس! وحين كان لويس التاسع ملك فرنسا في قبرص يعد حملته الصليبية

السابعة على مصر استقبل اثنين من النساطرة هما داوود ومرقص زعما أنهما مبعوثان من قبلْ جغطاي خان نائب الخاقان الأعظم في فارس. فرد الملك لويس بسفارة عمادها ثلاثة من الرهبان الدومينكان محملة بالهدايا ووصلت قراكروم عاصمة المغول في أعماق آسيا ولكن الخاقان الأعظم كيوك كان قد توفي وتولى بدلاً منه منكو خان، وخشي هذا كما خشي نائبه في فارس مغبة مثل هذا الحلف..

وبعد هزيمة لويس التاسع وحملته وأسره بمصر أرسل مبعوثاً إلى الخاقان الأعظم للغرض نفسه فعاد فاشلاً لأن منكو خان طلب إعلان تبعيه الملك لويس للمغول! ولم يقصر هيثوم ملك الأرمن في هذا المجال فبعث بدوره يفاوض الخاقان الأعظم ثم زاره بنفسه ليتفق معه على غزو الشام سنة ١٢٥٩ وأعلن الخاقان عطفه الشديد على المسيحية والمسيحيين وكلف أخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق واستعادة الأراضي المقدسة للمسيحيين واطمأن الصليبيون في الشام رغم هزائمهم إلى أن لهم في المغول الحليف المستعد للمعونة...

كان الإلحاح حتى سقوط بغداد على فكرة التطويق آتياً من جانب الصليبيين والغرب فلما هزم المغول في عين جالوت عند طبرية الهزيمة المنكرة على يد المسلمين ثم هزموا عند حمص وتراجع المد المرعب إلى العراق انقلب الأمر وصاروا هم الذين يتقاربون مع الصليبيين والغرب للاتفاق على التطويق وإذا شغل أبغا أول الأمر بالحروب مع مغول القفجاق المسلمين من ناحية ومغول التركستان من جهة أخرى فإنه لم يشغل عن فكرة التطويق... جاءته سفارة الأمير أدوارد الإنكليزي صيف ١٢٧١ وكان يقود حملته إلى عكا فما أسرع ما أجاب بسفارة أخرى بأنه قادم للاشتراك معه ونظم أدوارد أموره على أساس هذه المساعدة وطمحت به الآمال للاستيلاء على مصر والشام والقسطنطنية معاً...

لكن هذا كان حلم ليلة صيف. سرعان ما تبخر حين قدمت جموع قليلة من المغول اكتفت بالنهب والسلب في حوض نهر العاصي بالشام وعادت دون شيء فالمغولي الكبير الخاقان كان مشغولاً بحرب مغول التركستان المسلمين هناك... وعرف في الغرب أن أبغا قابل لكل اقتراح يودي بالمسلمين فكانت كل جماعة صليبية ترسل إليه في طلب المعونة. سواء من المقيمين أو من القادمين. وذات يوم كان لديه وفد من صاحب طرابلس سنة ١٢٧١ يشرح له قوة المماليك وما فتحوه من القلاع والحصون بقيادة الظاهر بيبرس فلم يملك نفسه من الحنق وقال لرئيس الوفد: أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتملأ قلوب عسكري رعباً من لقائه!

والواقع أن أبغا تأثر بهذا الحديث وصار يحسب للحرب مع المماليك ألف حساب ويراسل ملوك أوروبا للاتفاق على الهجوم المشترك. أرسل إلى صديقه الأمير أدوار الذي صار ملكاً في إنكلترا وأرسل إلى البابوية رسائل سنة ١٢٧٣/٦٧١ ولكن أدوار اعتذر بما على يديه من أعمال. وفي السنة التالية أرسل مبعوثين إلى مجمع ليون الكنسي يعرضان المشروع ولكنهما عادا ولم يكسبا من الرحلة سوى التعميد والتنصر وبعض الوعود الفارغة... ودأب أبغا على إرسال الرسائل والتحريض سنة بعد سنة ولم يدرك أن أوروبا في الواقع قد أدارت ظهرها للمشروع الصليبي كله وأنها اتخذت خطاً سياسياً مختلفاً. وكان المشروع يتقلص في رؤوس سياسييها يوماً بعد يوم. فلم يبق إلا في أذهان القسس وجباه بعض ذوي المصالح. وهذا لا يكفي لإثارة نملة!

على أن الموقف السلبي من مشاريع أبغا لم يمنعه من متابعة الفكرة مع الروم وحين أراد تطبيقها بالاشتراك معهم مني بخسارة فادحة مزقت جيشه في الأناضول سنة ١٢٧٧. وأسرع أبغا يرى مصير هذا الجيش وحين أطل على ميدان المعركة بكى حين وجد عسكره صرعى مكدسين ولم يشاهد جندياً واحداً مقتولاً من الروم حلفائه... وثار غضبه فأنحى على بلادهم بالتخريب! وعقد

تحالفاً قوياً مع ملك أرمينية من أجل حملة مشتركة لا ينتظر فيها نجدة الغرب وزحف بجيش من ثمانين ألف مقاتل على وادي نهر العاصي فحلت به أشنع الهزائم وسحق عسكره سحقاً سنة ١٢٨١ ... وتولى الأدبار ...

الطريف أنه بعد أن توفي سنة ٦٨٠ خلفه أخوه تكدار فأعلن اعتناق الإسلام وبنى المساجد وأمر بخروج حملة للحج إلى بيت الله الحرام ! ..

مصادفة تدمر فتحاً

مجاهد العامري ؟

اسمه هذا اليوم نكرة من النكرات فلا هو من أبطال الفتح الأول ، ولا الخلفاء والملوك ، ولا من الشعراء والعلماء ولا من أرض تعرفها فتنسبه إليها . ولكنه مع ذلك كان في عهده (مطالع القرن الخامس الهجري/١١م) فَرَق الدنيا وهزة الناس في الحوض الغربي كله من البحر المتوسط . كان الاسم المرعب على الشواطئ ما بين فرنسا الجنوبية وإسبانيا الشرقية وإيطاليا الغربية وشواطى أفريقية والمغرب أيضاً . من قاعدته (دانية) على الشاطئ الإسباني كان سيد البحر كله من جبل طارق إلى الممر البحري بين صقلية وأفريقية (تونس) .

كان من أعظم القادة البحريين في عصره . ظهر الموج مهنته وإن كان من رجال الدولة . وصراع البحر لعبته وهوايته . وأهم من هذا وذاك أن المغامرة كانت تغريه وترقص له . وكانت جزر الباليار التي يسميها الأندلسيون بالجزر الشرقية تغريه بمركزها الاستراتيجي في وسط البحر كما أغرت الكثير من قواد العرب مرة بعد مرة قبل ذلك وعرفت لذع سيوفهم ووقع الرماح . فما أهون ما قرر مجاهد غزو هذه الجزر . وفي سنة ٤٠٥ أعد حملة بحرية سالت بها الأشرعة واصطفقت حتى نزل بها .

كان البحر مليئاً بالقراصنة من كل جنس : بعض من نابولي وبعض من صقلية وبعض من جنوب فرنسا والبروفانس وبعض من الإسبان بل ومن العرب أيضاً ما بين فاطميين وأندلسيين فقد نقلوا خصوماتهم إلى البحر وأصبح بعض

لبعض عدواً يتعقبه ويبطش به ! كلهم كان يبغي صيداً . وكانت سفن التجار أو سفن النقل ضالتهم فإما الإتاوة وإما البضاعة وإما الغرق للأسماك أو الأسر للبيع في أسواق النخاسة ... حتى لأبناء الدين الواحد . لكن لم يستطع أحد أن يتعرض لعمارة هذا الصقر العابر . كلهم أوجسوا خيفة من مقاربته وابتعدوا بعيداً عن طريقه حتى نزل ميورقة ومينورقة ويابسة ... جزر فاتنة سخية الخضرة ، متنوعة الألوان تحسبها في عرس أبدي . الشاعر ابن اللبانة قال في تلك الأيام فيها :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

ولم يصبر مجاهد غير خمسة أشهر بعد هذا الفتح حتى داعبته أحلامه بفتح سردانية (سردينيا) . ولعله كان منذ البدء يعرف ماذا يريد ؟ ويخطط لهذا الذي يريد . إنه لم يشأ أن يقرب صقلية العصية ولا الفاطميين فيها ولهذا اختار سردانية المعقل الكبير المماثل . وقد حاولت زوجه المسيحية التي أنجبت له ولده علياً أن تثنيه عن هذا العزم . ولعل أهم ما كان يحركها هو الخوف عليه بقدر رغبتها في ألا ترى الدماء المسيحية تراق . ولكن أحلام الرجل لم تكن لتتأثر بدموع زوجته ! وسار سنة ٤٠٦ بالأسطول الذي كان يتكون من ١٢٠ سفينة وألف حصان ... غير بعض الإمدادات !

منذ أطلت أول أشرعته البحرية على الجزيرة كان عليه أن يخوض أقسى المعارك . وخاضها . كانت المعركة رهيبة مرعبة وانتصر مجاهد فيها بعد أن ترك على الثرى من القتلى والجرحى أكواماً بعد أكوام وخاصة من جند الجزيرة . ونفذ بعد ذلك إلى معاقلها الجبلية فاحتل الكثير منها وأقام المزيد من الحصون وخطط لنفسه مدينة يبنيها لأنه قرر الاستقرار في ذلك المعتزل الواسع المنيع ...

مرة أخرى استيقظت أحلام مجاهد بعد هذا النصر . إنه يريد أن يقفز

منه إلى البر الإيطالي في شرقه متخذاً من سردانية قاعدة بحرية لتوسعه. كان يبني إمارة على الماء فالبر وبالبحر عنده سواء. وثم على البر الإيطالي كانت نابولي وروما وفلورنسا وبيزا وجنوة. ولكنه اختار بيزا. أكان يحلم بتطويق الحوض الغربي للمتوسط كله؟ إنه مخطط كثير الطموح لو كان يرسمه. ولكنه كان يعتمد على النجاح في خطوته الأولى.

وثغر بيزا كان حصيناً. وقد انطلق إليه من مدينة لوني. وتربص مجاهد بالأسطول البيزي فترة حتى إذا رآه يخرج إلى قلورية (كالابرية) للإغارة على ريجيو في الجنوب وطرد المسلمين منها، رأى الفرصة السانحة.

في هدأة الليل وعلى الصمت والحذر الشديدين كان أسطول مجاهد يجتاز التحصينات البحرية الأولى بسهولة ويعبر بسفنه نهر الأرنو إلى الداخل. كان النهر حول أواسطه يشق مدينة بيزا نصفين. الحاميات التي اعترضت طريق مجاهد فاجأها وكتم أنفاسها. وسقط أحد أحياء المدينة بيده دون كبير عناء أو ضوضاء. وتقدمت السفن بالرجال إلى الجانب الآخر حيث يقوم قصر الحاكم. كان كل شيء مقدراً محسوباً بدقة من قبل مجاهد إلا... تلك المصادفة التي وقعت فخربت كل شيء!

المصادفة كانت حين تنبهت امرأة من أهل بيزا تدعى Giossica Gismandi إلى أصوات غريبة على مقربة من بيتها فخرجت تتقرى سر هذه الضوضاء المخنوقة. وامتلأ قلبها رعباً حين شاهدت وجوهاً غريبة تتسلل وسفناً أجنبية تعبر النهر. كان نذير غارة يطل مع هذه الأشباح المتدثرة بالليل. وركضت المرأة مسرعة عبر البساتين إلى قصر الحاكم الغافل وأنبأته بالخبر الصاعق! وفجأة دقت الأبواق والأجراس واحتشدت الحامية وانطلق السكان من بيوتهم وبما يملكون من السلاح للمقاومة. ولم يكن الليل البهيم ليخفي السيوف الغازية والرجال فاضطرت جماعات مجاهد إلى التراجع واحترق الحي الذي احتلوه...

عند الفجر كانت النجدات تتوالى من القرى المجاورة ثم من المدن ثم من القوى البابوية ... وتكاثرت على مجاهد وجماعته فكانوا يقاتلون وهم يتراجعون حتى خرجوا النهر إلى البحر وأطلقوا الأشرعة والمجاديف إلى سردانية ! وهناك وقعت المصافتان الثانية والثالثة .... تمردت القوات فجأة على قائدها مجاهد شاكين من هذه الأحلام العبثية التي يطاردها والتي لم ينالوا منها سوى الموت أو العناء الذي يشبه الموت . وانتشر من جهة أخرى الوباء في المدينة التي بناها في الجزيرة . فقد بناها في منطقة موبوءة مكان إحدى المدن المندثرة ! وتزامنت هاتان المصادفتان مع مصادفة ثالثة هي هجوم القوات السردانية عليه .

وفيما كان مجاهد يحاول قمع التمرد في جنوده فوجئ بلحاق أساطيل جنوة وبيزا به تحت علم البابوية تطارده في سرادنية نفسها . وكان بين نيران عدة أحلاها أمر من العلقم ! ولم يكن بإمكانه أن يعتمد على أحد من السردانيين فقد عانوا منه أبشع الظلم ــ فيما يذكرون ــ بل بالغوا في التهويل فقالوا إنه كان يبني بأجسادهم القلاع أو يلقيهم للكلاب الشرسة تمزقهم وهو ينظر ... ولم يكن أمام مجاهد سوى البحر فاضطر لركوبه . كان الماء ملجأه الممكن الوحيد . وأخذ معه من بقي على الولاء من قواته . وأطلق أشرعته للريح ...

وعاد مجاهد فاشلاً إلى لوني . ويقولون إنه في ذلك اليوم أرسل إلى البابا كيساً مملوءاً بغبار الحرب يهدده . فأرسل البابا إليه بالمقابل بكيس مملوء بالحبوب يريد به أنه سيلاقيه بالأعداد الوفيرة ، عدد الحب !

وانتقل البابا ، بهذا النصر المحدود على مجاهد ، من الدفاع إلى الهجوم : أقام حلفاً من جنوة وبيزا بزعامته . ودفع نفقات الحرب لهما وحولها إلى حرب صليبية كاملة ...

وانقلب ميزان الحظ فجأة مع مجاهد . جرى له في طريق العودة ما جرى في ملحمة الأوديسة ، مع أوديسيوس . لقي مر الشدائد . وانقلب بذلك الميزان

البحري كله في الحوض الغربي للمتوسط فقد استعاد المتحالفون لوني من مجاهد ثم أخذوا منه سردانية في معركة بحرية دمرت أسطوله وعليه « ٨ » آلاف فارس. ثم جاءت العواصف فذهبت بالباقي... ولم ينج منه سوى خمسة مراكب كان مجاهد على واحد منها ! ...

وهذا النصر إذا أعطى جمهوريات المدن الإيطالية السيطرة على تجارة المتوسط الغربي، فقد فتح لها في الوقت نفسه سبيل الطمع بالمشرق والهجوم عليه في آخر القرن الحادي عشر نفسه مع الغزوات الصليبية ...

وما حكاية مجاهد سوى بعض من حكاية هذه الغزوات الصليبية !.



الفهرس

من ذكريات الغزو الفرنجي :　　　وجوه من العهد الصليبي / شاكر مصطفى . ــ دمشق :
دار طلاس ، ١٩٩٥ . ــ ١١٩ص ؛ ٢٠ سم .

١ ــ ٩٥٦٫٠٥٤٥ م ص ط　م ٢ ــ ٩٢٠ ع　م ص ط　م ٣ ــ العنوان ٤ ــ مصطفى
مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٥٦٣ / ١٠ / ١٩٩٥　　　رقم الاصدار ٦٨٠

هذه السلسلة

هي مجرد أوراق متناثرة، كأوراق الخريف لا يجمعها إلا أنَّ من تتحدث عنهم مرُّوا في خاطر الزمن. ثم طواهم الغيب طيَّ السِّجلِّ للكتب. وهي لا تزعم أنها تحمل عِلْماً للمختصين فمدى أطول أوراقها صفحات ثلاث أو أربع. ولا أنها تجترح كشوفاً وأسراراً ما سبقها إليها سابق. فكلها سِيَرٌ لطيوف عبرت الماضي وتركت وراءها الغبار. لكنها تزعم، بلى، إنها طرائف من هنا وهناك وقصص شاردة هي حصيلة عمر من الدراسات ذابت فيها العيون وضاعت على أحرفها الليالي والأقمار وفيها ما فيها من الزاد الثقافي، كَرْماً على درب.

ولقد تكون كتبت ليأنس بها من يحب المعرفة التاريخية أو من يشدو بعض الراحة هرباً إلى عالم الآخرين. لكنها من وراء هذا وذاك تحمل رسالة، إنها دعوة للقراءة السريعة المفيدة. ففي عالم السرعة وزحام المشاغل والوجبات الخفيفة. هذه وجبات ثقافية أسرع وأخف وأمتع!

أتراها تنجح في حمل هذه الرسالة؟

